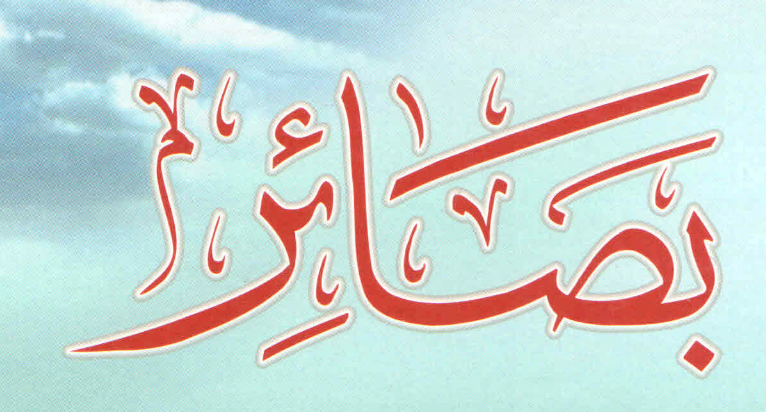



تأليف

د. محمّد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

الحمد، محمد إبراهيم أحمد

بصائر . / محمد إبراهيم أحمد الحمد - الرياض، ١٤٣٤هـ

٢١٦ ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٣٢١-١-٠-٦٠٣-٩٧٨

١- المقالات العربية – السعودية أ- العنوان

ديوي ٠٨١ ١٤٣٤/٥٢٦٠

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٥٢٦٠
ردمك: ٦-٢٣٢١-١-٠-٦٠٣-٩٧٨



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف : ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد

فإن شواغل الحياة لا تنتهي، وإذا انقضت للإنسان حاجة فاتت أخرى؛ فتبقى له حاجة ما بقي.

ومهما حاول الفرار من تلك الشواغل هجمت عليه هجوم الليل إذا يغشى، فلا تكاد تجعل له فرصةً كي يقف مع نفسه، ويدوِّن بعض ما يجول في خاطره من نظرات في مُجريات الحياة.

ولا ريب أن اقتناص ساعات الفراغ والصفاء لِمَنْ أعظم ما ينبغي أن يُعنى الإنسان به؛ فينبغي له انتزاعُها، بل يجدر به سَرِقَتُها إذا نام الدهر ـعلى حدِّ قول ابن زيدونـ.

وما بين صفحات هذا الكتاب هي من ذلك القبيل؛ فهي بصائر تحمل طابع القرب ـفي مجملهاـ وتنظر إلى بعض الأشياء من زوايا متعددة، وتشير إلى بعض المقاصد من طَرْفٍ واضحٍ أحياناً، وخفيٍّ أحياناً أخرى.

وموضوعات هذا الكتاب لا تسير على وتيرة واحدة من حيث الطول والقصر؛ إذ بعضها يعبر عن المقصود في صفحة، وبعضها في

صفحات، وبعضها في سطر، أو أقل، أو أكثر.

وقد يُجْمل الكلام في أمرٍ ما في موضع، ويفصل في موضع آخر وهكذا..

ولقد سُبقت هذه البصائر بكتب تحمل هذا الطابعَ، وهي: خواطر، وارتسامات، وومضات.

فهذا الكتاب قريب منها، وداخل في قبيلها من جهة اليسر، والانطلاق على السجية، والتخفف من عناء العزو، والتخريج؛ فإلى تلك البصائر، والله المستعان، وعليه التكلان.

د. محمد بن إبراهيم الحمد
الزلفي: ص.ب: ٤٦٠
٢٤/١٠/١٤٣٣هـ
جامعة القصيم ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
www.toislam.net
alhamad@toislam.net

## الأمثال

الأمثال أقوال موجزة، تُشَبِّهُ حالاً مشاهدةً منظورةً بأحوال سابقة، والذي يجمع بين الحال السابقة والحال القائمة هو المماثلة.

وللأمثال أثر في النفوس، وسيرورة في الناس، فهي تبعث على العمل، وتقوِّم السلوك، وتضيء السبل، وتهدي في معترك الحياة.

وذلك بسبب ما تتضمنه من توجيه، أو تنبيه، أو تعليم؛ فالعاقل يسترشد إذا سمع المثل، والغافل يتذكر بالمثل ما مضى من حوادث التاريخ، وهكذا.....

وللأمثال أهداف تربوية، وخُلقية؛ بما تدعو إليه من قيم نبيلة، ومثلٍ عليا، وبما ترسمه للمرء في حياته من أنواع السلوك الحميد، والاحتياط للأمور، وحسن التصرف فيها، وبما تنهى عنه من السلوك السيىء، والتصرفات الشائنة؛ ذلك أن الأمثال خفيفة الظل، سريعة الحفظ، تمزج الهزل بالجد، وتشير إلى ما تريد بطرف خفي، فتعالج كثير من الأمور بكلام يسير يصل إلى أعماق النفس.

وما من موقف يمر به الإنسان في حياته إلا ويجد من الأمثال ما يعبر عنه، ويهوِّن عليه بلاءه، أو يخفف من غلوائه، أو يوجِّهه الوجهةَ الصحيحة التي تقوِّم سلوكه، فتحببه في الجميل، وتنفِّره من القبيح.

**قال أبو هلال العسكريُّ رحمه الله في مقدمة كتابه جمهرة الأمثال:**

«ما رأيت حاجةَ الشريف إلى شيءٍ من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته إلى الشاهد، والمثل، والشَّذْرة، والكلمة السائرة؛ فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبولاً، ويُجْعل له قدراً في النفوس، وحلاوةً في الصدور، ويدعو القلوبَ إلى وَعْيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعدادٍ لأوقات المذاكرة والاستظهار به أوانَ المجاولة في ميادين المجادلة والمصاولة في حلبات المقاولة.

وإنما هو في الكلام كالتفضيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في البُرد[1]؛ فينبغي أن يستكثر من أنواعه؛ لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير في التماسه قصور.

وما كان منه مثلاً سائراً فمعرفته ألزم؛ لأن منفعته أَعَمُّ، والجهل به أقبح».

إلى أن قال رحمه الله: «ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جُلِّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ؛ ليخفَّ استعمالُها، ويسهلَ تداولها؛ فهي من أَجَلِّ الكلام وأنبله، وأشرفه، وأفضله؛ لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسر مؤونتها على المتكلم مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها.

---

١ ـ التسهيم في البُرد: التخطيط فيها.

ومن عجائبها أنها ـ مع إيجازها ـ تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب.

والحفظ مُوكَّلٌ بما راع من اللفظ، وندر من المعنى».

وقال **علي بن عبدالرحمن بن هذيل** رحمه الله: «وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر، والبيت النادر، وما يحكى عن أهل العصور من الأخبار العجيبة، وما وقع لهم من الألفاظ البليغة، والمعاني الغريبة؛ ففي ذلك العلمُ بالأمور، والعقل المكتسب، والأدب الصادر عن ذي المروءة والحسب».

فالأمثال في أي لغة من اللغات هي خلاصة تجارب الشعوب، صُبَّت في قالب لفظي موجز، كما أنها مرآة لثقافة الأمة، واتجاهاتها الفكرية، ونظرتها للحياة.

لذلك نجدها مشحونة بالأفكار والنظرات الصائبة.

فما يكاد يسمعها أهل اللغة، أو يقرؤونها حتى تتداعى المعاني في أذهانهم، فَتُغْنِي المتحدثَ والكاتبَ عن كثير من الكلمات.

ولقد تضمن الشعرُ العربي منذ العصر الجاهلي الكثيرَ من الحكم والأمثال في كثير من القصائد مما أضفى عليها صفة البقاء، ومنحها القوة، فتجاوزت زمنها وغرضها الذي قيلت فيه.

ثم إن الأمثال تطالعنا بعدد من الأعلام الذين صاروا من الشهرة بحيث

ظلوا يترددون على الألسنة، فمن منا لا يتمثل سوء الجزاء عندما يُذكر له (سنمار)؟ ومن منا لا يتصور خلف المواعيد من (عرقوب)؟ ومن ذا يغفل عن (براقش) التي جنت على أهلها، وجلبت لهم الخراب والدمار «وعلى أهلها جنت براقش».

وإذا ذُكِرت حليمة تبادر إليها اشتهار الأمر وافتضاحه «وما يوم حليمة بسر».

ومن ذا ينسى (جهينة) الذي عنده الخبر اليقين، أو (المعيدي) الذي تسمع به خير من أن تراه.

ثم إن الأمثال تُشيع روحَ الفكاهة والسخرية في كثير من الأحيان؛ فترسم صوراً أشبه بفن الكاريكاتير الساخر، كقولهم: «ذهب الناس وبقي النسناس».

وقولهم: «ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد مصلوم الأذنين».

وقولهم: «من غربل الناس نخلوه».

هذا ولدى العرب رصيد ضخم من الأمثال لا يحتويه كتاب، ولا يستوفيه مصنف.

والكلام ههنا ليس معنياً بحصر الأمثال، أو جمعها؛ فقد كُفينا هذا

الأمر، والكتب الجامعة للأمثال كثيرة، كالأمثال لأبي عبيد، ومجمع الأمثال للميداني، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، والمستقصي من أمثال العرب للزمخشري، والتمثيل والمحاضرة للثعالبي.

ومن الكتب المعاصرة في هذا الشأن كتاب معجم الأمثال د.محمد الصيني، وناصف عبدالعزيز، ومصطفى سليمان.

ثم إن الأمثال مبثوثة في تضاعيف كثير من الكتب في شتى الفنون، سواء في كتب التفسير، أو شروح الحديث، أو الأدب، أو غيرها.

هذا وإن للعلماء عناية بالأمثال سواء علماء اللغة أو علماء الشريعة، أو غيرهم؛ إذ يستطرفونها، ويتمثلون بها، ويضمنون كلامهم شيئاً منها خصوصاً منهم من كان ذا أسلوب أخَّاذ، ولغة راقية؛ فإذا جاءت الأمثال في غضون كلامهم صار له رونق وجمال.

وبعد فهذه إلماحة يسيرة عن الأمثال، تنبئ عن شيء من قيمتها، وتلوّح إلى أنه يحسن بالكاتب، والخطيب، والداعية أن تكون منه على ذُكْر.

## إشارات قرآنية

١ ـ سورة محمد هي السورة الوحيدة التي بدأت بالاسم الموصول (الذين).

٢ ـ هناك تناسب بين خواتم كثير من السور وبدايات السور التي تليها، مثل: آل عمرآن، والنساء، والمائدة، والأنعام، والتوبة، ويونس.

وكما بين يونس وهود، وبين يوسف والرعد، وبين الرعد وإبراهيم، وبين الإسراء والكهف، وبين طه والأنبياء، وبين الحج والمؤمنون، وبين النمل والقصص، وبين الجاثية والأحقاف، وبين الأحقاف ومحمد، وبين الفتح والحجرات، وبين الطور والنجم، وبين الواقعة والحديد، وبين القيامة والإنسان، وبين المرسلات والنبأ، وبين الليل والضحى عموماً وخصوصاً في الرضى، وبين العاديات والقارعة.

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ من أبلغ ما يكون في التعريض بغباوة الكفار.

٤ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ نفي للمحاباة يوم القيامة.

٥ـ سورة النحل تسمى سورة النعم؛ لتعداد كثير من النعم فيها، وأجلُّ ذلك نعمة التوحيد والإيمان؛ فكانت البداية بها ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

٦ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ إرشاد إلى تدبير المعيشة، وقد جاء في الأثر «لا عقل كالتدبير».

## قُلْ اللَّهُمَّ مالكَ الْمُلْك

هذا العنوان جزء من آية في سورة آل عمران، وتمامها قوله ـتعالى ـ:
﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذه الآية من الجلاء والوضوح بحيث يفهمها أكثر من يقرأ القرآن، أو يسمعه وهو يفهم العربية ولو بقدر قليل.

ثم إن تأويلها في عالم الوجود ظاهر للعيان.

ونحن في هذه الأيام في عامي ١٤٣٢هـ ـ ١٤٣٣هـ أيام ما يسمى بالربيع العربي يتجلى لنا تفسير هذه الآية غاية التجلي؛ إذ رأينا كيف خَرَّت قوى، وزالت عروش، وهوى أصحابها من شامخ، وصاروا إلى حال يتمنون أن لم يطأوا على الأرض يوماً من الأيام.

وهذه السنة الإلهية في أخذ الجبابرة، ومداولة الأيام، وإعزاز أقوام، وإذلال آخرين ـ هي آية من الآيات الدالة على رب الأرباب ومسبب الأسباب.

كما أن هذا التبديل، والتغيير من حال إلى حال ـ ليس لمحض المشيئة، ولا لصرف الإرادة كما يقول الذين يعطلون أفعال الرب عن الحكمة والتعليل.

وإنما هي لمشيئة نافذة، وإرادة تامة مقرونتان بالحكمة، والعدل، والرحمة، والعلم.

فليس تولي المنصب خيراً في كل حال، وليس العزل شراً في حق كل أحد.

وليس الإعزاز والإذلال، وإيتاء الملك، ونزعه هكذا، وإنما هو مقتضى الحكمة الربانية التي هي أجل المسائل الإلهية كما يقول الإمام ابن تيمية.

فالإعزاز والتمكين، والإكرام له أسبابه التي على رأسها التقوى، والعدل، والإحسان.

والإذلال، والنزع، والإهانة لها أسبابها التي على رأسها البغي، والظلم ﴿ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾.

وهذا الأمر يجري على الدول، والأفراد، والجماعات.

## ومضات

١ـ ما أجمل أن تكون أحلى من العسل، وأَمَرَّ من الحنظل.

٢ـ لم يعتذر من أساء إليك جهراً، واعتذر منك سراً.

٣ـ الشكوى لمن لا يُشَكِّيك، ولا يعنيه شأنك ـ زيادة في مَرَضِك وغمك

**شكوى الجريح إلى الغربان والرخم** ..............................

قال الصفدي: كان ابن تيمية كثيراً ما يردد:

**تموت النفوس بأوصابها ولم يدرِ عُوَّادُها ما بها**

**وما أنصفت مهجة تشتكي إلى غير أحبابها ما بها**

٤ـ إذا دُفع الشرُّ بمثله تسلسل وامتد.

٥ـ لقاؤك بمن تأنس به يشغلك عن رؤية الساعة.

٦ـ لا أظلم منٍ حاسدٍ لمنعمٍ عليه.

٧ـ يبلغ بي السرور والإعجاب كل مبلغ إذا رأيتُ إنساناً ذا جاهٍ أو منصبٍ أو مالٍ وهو على درجةٍ عاليةٍ من التواضع والنزاهة والزكاء.

٨ـ من المصائب أن يحاول بعضُ الناسِ الجمعَ بين الفقر المدقع والترف الزائد.

٩ـ الأم وفاء بلا نهاية، وعطاء بلا طلب عِوَض.

١٠ـ الشجاعة درجات، ومن أعلاها مرتبةُ التسامحِ.

١١ـ الصبر سيد المفاتيح.

١٢ـ امتلاك القلوب يكمن في قوة المنطق لا بمنطق القوة.

١٣ـبحسن العشرة تكون الحياة الزوجية شهرَ عسل، وبسوئها يكون الشهرُ الأولُ من الزواج نقيعَ الحنظل.

١٤ـحبُّ الأهل والوطن ليست كلمة تتمضمض بها الأفواه دون أن تتخلل مسلك الروح، ويكون لها رصيد في الواقع.

١٥ـيتلذذ الكريم بإسعاد الناس وإعزازهم تَلَذُّذَ اللئيمِ بأذيتهم وإذلالهم.

١٦ـمن أعظم صفات القائد الذي يريد الإبقاء على مكانته أن يكون صفّاحاً لا سفاحاً.

١٧ـ المنتصر على أهله وأقاربه مهزوم، والساعي لإذلال من تحت يده مأزوم.

١٨ـ الحب مَعِينٌ يزيد بكثرة المتح.

١٩. إذا اتسع العلم اتسع الحلم والرحمة (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً).

٢٠ـ التماس المعاذير للمخطئ دليل سعة النفس، وكبر العقل.

٢١ـبعض الناس يحتاج إلى من يقول له: قِفْ.

٢٢ـكثرة العتاب لا تجلب المودة:

**أقلل عتابَ من استربْتَ بودِّه  ليست تنال مودةٌ بعتاب**

٢٣ـالاعتراف بالفضل، وشكر المحسن من أنبل الأخلاق.

٢٤ـإذا جُبِل الطبع على عِوج عَسُر التقويم.

٢٥ـقال لي والدي ـرحمه الله ـ: إذا رأيت الإنسان أول وهلة ملأ إحدى عينيك؛ فإذا تكلم ملأ الثانية أو خلا منهما جميعاً.

٢٦ـليس لمروءة الكريم حد، ولا لِلُؤْمِ اللئيم حد.

٢٧ـإذا كمل المخبر تخفف صاحبه من تكاليف المظهر.

٢٨ـلا تنظر إلى صغر الإنسان أو كبره، بل انظر إلى ما شاده وأَثَّلَه.

٢٩ـلا يهوى نشر العيوب إلا ذووها.

٣٠ـالمعاصرة حجاب، والتعامل مع المعاصر يحتاج إلى قوة عقل وإنصاف.

٣١ـ في الناس من يلازمه شعور دائم أنه مهضوم لم يأخذ حقه من الإجلال والتقدير.

٣٢ـ العاقل يفر من الهموم، وغير العاقل يبحث عنها.

٣٣ـ بعض الناس عَذاب، وبعضهم عِذاب.

٣٤ـ روعة الكلام، وروعة المواقف من أعظم ما يثير النشاط، ويهز إلى المكارم.

٣٥ـ حفظ كرامة المعتذر منهج الأنبياء (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ).

٣٦ـ التعبير بالماضي الذي نزع منه صاحبه منطقُ فرعونَ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ ﴾.

٣٧ـ قد تكون مميزاً ذا حضور وتأثير، ولكن ليس كلُّ يومٍ يومَك، ولا كل جوٍّ جوَّك.

٣٨ـ من حُرِمَ سلامةَ الذوقِ حُرِمَ خيراً كثيراً.

٣٩ـ من ضمور الوفاء أن يتجاهل الإنسان صاحبه إذا رآه بعد فترة؛ التناسي شرٌّ من النسيان.

٤٠ـ من أعجب ما مرَّ بي في سيرة ابن المبارك أنه كان يُفخِّم أصحابه، وبعض الناس تجالسه فترة طويلة ولا يكاد يعرف اسمك، أو يسأل عنه.

٤١ـ قَلَّ أن يُنْصَفَ إنسانٌ في حياته.

٤٢ـ من العجب أن تكون بينك وبين أحد علاقة تقوم على صدقِها شواهدُ كالجبال، ثم يأتي موقف، أو تسمع كلمة قد تكون كاذبة أو قابلة للتأويل؛ فتهدم جميع شواهد المودة.

٤٣ـ من الأمور التي يُغْفَلُ عن احتساب أجرها، واستشعار آثارها تعريف الأفاضل الأخيار ببعض.

ومن الأمور التي لا يُستشعر خطرها ربطُ الأشرار ببعض.

٤٤ـ الشهامة دمٌ يغلي في عروق صاحبه، فيجتث منه كل رعونة، ويقوده إلى كل فضيلة.

٤٥ـ اللؤم جرثومة تجري في دم صاحبها، فكلما هم بالمعالي قالت له: مهلاً.

٤٦ـ العلم سبيل إلى السعادة، وطريق إلى الكمال؛ فإذا فاتَكَ هذا فقل: على العلم السلام.

٤٧ـ لو علم المتكبر مقدار حقارته في النفوس لآثر الموت على الكبر إن كان في قلبه بقيةٌ من حياة.

٤٨ـ الصداقة الفاضلة من أعظم لذات الدنيا، ويخطئ من يظن أنها معدومة، أو مستحيلة.

والأقوال والآثار الواردة في ذلك تحمل على أحوال خاصة مرت بأصحابها، ولا تُتَّخذ قاعدة عامة مطردة.

٤٩ـ ما رأيت أشد همة ولا طموحاً في الإفساد من إبليس؛ فهو لا يفرط بأدنى شيء من ذلك.

## خواطر

١ـ الصديق العاقل: هو الذي يعرف ماذا ينقل عنك، ومتى، وأين، وعند مَنْ.

٢ـ بلاد الشام ينتظرها ـبإذن اللهـ خيرٌ عميمٌ، ومجدٌ عظيم.

٣ـ حصل خلافٌ بين اثنين من علماء شنقيط فأراد طالب لأحدهما أن ينتصر لشيخه، فقال له الشيخ: يا ولدي نحن العلماء كالأمواس، لا يجرح بعضها بعضاً، فإذا دخل بينها أحد كان حرياً بالضرر.

٤ـ **ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى ... عدواً له ما من صداقته بدُّ**

بيتٌ سارَ مسيرَ الريح، ولو قال: ما من مداراته، أو مداجاته لكان أليق.

٥ـ بعض الناس: **الخير يُهمس عندهم ... ويُقام للسوآت منبرْ**

٦ـ معرفةُ بعضِ الناس قلقٌ، ومعرفة بعضهم شفاءٌ لِلحُرَقِ.

٧ـ رؤية بعضِ الناس تشعرك بالأمان.

٨ـ كم نحن بحاجة إلى الأمن النفسي في بيوتنا، ومجالسنا، وصداقاتنا.

٩ـ السكينة مطلبٌ يتأتَّى بالارتياض.

١٠ـ بعض الناس لا يجد جوَّه إلا بالبكائيات؛ أليس في ذلك شَبَه بمن يجترون مأساة الحسين، والسبي البابلي؟

١١ـ إشعال النار أيسر ما يكون، وكلٌّ يجيد ذلك.

أما إطفاؤها خصوصاً إذا زاد اضطرامها فلا يجيده كلُّ أحد.

١٢ـ بعض الناس قد تَقلَّب في شؤون الحياة أيما تقلب، ولا تكاد تظفر منه بتجربة، أو حكمة.

وبعضهم لو دخل من باب، وخرج من آخرَ قريبٍ منه لجاءك بالعجائب.

١٣ـ البركة مصطلحٌ شرعيٌّ عظيمٌ لا تجده في كثير من نظريات الاقتصاد، ولا في مناهج البحث والتأليف.

١٤ـ المجالس الآمنة من أعظم منابع الأنس والحكمة.

١٥ـ أنت لا تدري عن فلان، أو لا تدري ما وراء ذلك الأمر: كلمات مجملة يَجْبهُ بها كلُّ عدو للحقيقة، ويتقبَّلها كلُّ مؤْثِر لإلغاء عقله.

١٦ـ يقال: إن رواد الفضاء ليس لهم قبولٌ عند بعض أهل السياسة.

أما لماذا؟ فأترك الجواب لك.

١٧ـ المعارك الصغيرة كلٌّ يجيدها.

١٨ـ لو فكرت ملياً في عاقبة ما تريد الوصول إليه في كلِّ شأن من شؤونك ـ لأسقطت جانباً كبيراً من أقوالك، وآرائك، ومواقفك.

١٩ـ العظيم لا تخرج من عنده بأية رسالة سلبية.

٢٠ـ إدارة الأزمة تحتاج إلى حكمة، وحنكة، وسلامة فطرة.

٢١ـ لا تبالغ إذا قلت: إن الحاجة إلى الذوق تكاد تكون ضرورية في أغلب شؤون الحياة.

٢٢ـ بعض الناس لا يفيد من طول عمره، وتوالي التجارب عليه:

**إذا لم يكن مرُّ السنين مترجماً عن الفضل في الإنسان سميتَه طفلاً**

٢٣ـ إذا قلَّت ثقتك بأكثرِ مَنْ حولك فراجع نفسك.

٢٤ـ الفارغ البطال مشروع هدمٍ وإيذاءٍ للجادين العاملين، وقديماً قالت العرب: ويلٌ للشجيِّ من الخليّ.

٢٥ـ بعض الناس يظن أن أحوال العالم مِنْ حَوْلِه منوطةٌ به، وأنه لو غفل عنهم لحظة لتداعت أمورهم؛ ألا يستحضر أنه ينام ثم يصحو، ولم يتغير شيءٌ من نظام العالم؟!

٢٦ـ بعض الناس يعرفك حقَّ المعرفة، ولكن منزلتك عنده ترتفع، وتهبط بحسب ما يسمع عنك.

٢٧ـ الابتسامة جميلة في كلِّ وقت، وهي أجمل عند القيام من النوم؛ إذ الحال حال عبوس وتجهم، وضيق نَفْسٍ.

٢٨ـ بعض الناس لا يخطر بباله أن يعتذر عن أيِّ خطأ؛ فلديه ألف مسوِّغ ومسوِّغ؛ لتفادي الاعتذار.

٢٩ـ الاعتذار عن الخطأ لا يُسقط المنزلة؛ إنما يسقطها المكابرة.

٣٠ـ نحن نرى أننا نربي أولادنا ومن تحت أيدينا، وهم ـ في الحقيقة ـ يربوننا على الحلم، والصبر، والتماس العذر.

٣١ـ لو أخذ التثبت حظَّه من مجالسنا، وأحاديثنا، وكتاباتنا ـ لتقلصت الاحتقانات، ولتطهرنا من رجس الإشاعات، وسلمنا من كثيرٍ من المشكلات.

٣٢ـ هو صاحب الحاجة، ويشغلك بالبحث عنه، والعامة تقول في أمثالها: (محمول ويرفس).

٣٣ـ إذا رأيت اثنين من الأقران يُثني بعضهم على بعض، ويعترف كلٌّ منهما لصاحبه بالفضل ـ أوشكت أن تقول: هما ملكان في ثياب بشر.

٣٤ـ جحود الفضل نقصٌ في العقل.

٣٥ـ قياس الأشباه مفيد في حـل المـشكلات، ولكنـه لـيس الحـل النهائي؛ لأن كل مشكلة لها وضعها الخاص الذي يحتـاج إلى مراعـاة الزمان، والمكان، والحال.

## رمضانيات
## العشر الأواخر ١٤٣٣هـ

١ ـ يارب! أهواؤنا تحوم حول مساخطك ، وعقولنا تحجزنا عن ذلك ، والمعركة سجال بين الطرفين؛ فاجعل أهواءَنا تابعة لعقولنا ، واجعل عقولنا منقادة لشرعك.

٢ـ رباه! ما أحلمك ، وما أكرمك ، وما أرحمك؛ ولولا ذلك لأيسنا من رَوْحِك؛ لفرط تقصيرنا مع تتابع نعمك علينا.

٣ـ إلهنا! بهرنا حلمُك ، وفَتْحُكَ بابَ الرجاءِ للمسيئين.

٤ـ رباه! لو لم يكن من دلائل وحدانيتك إلا ما يجده المؤمنون من حلاوة القرب منك ، ولوعة البعاد عنك ـ لكفى.

٥ـ طالما أن معاصيك تقلقك فأنت على خير؛ والويل كل الويل من استمرائها ، والطمأنينة لها.

٦ـ ما الذي يمنعك من أن تسأل ربك مغفرة ذنوبك؟ بل وتبديلها حسنات ، بل ومضاعفتها بعد ذلك؛ فأنت ترجو الرحيم الأكرم.

٧ـ شهر كريم ، وعشر أخيرة مباركة ، ورب هو أكرم الأكرمين ، وقد بسط يده للمسيئين؛ فما العذر؟ ومتى الأوبة إن لم تكن في هذه الأيام؟

٨ـ لا تكن كثرة الذنوب حائلة بينك وبين ربك؛ اغسل ذنوبك بدموع الإنابة، وقديماً قال السلف: أنين المذنبين أحبُّ من زجل المسبِّحين.

٩ـ الفضائل في هذه العشر تحاصرنا من كل جانب، فأيُّ حرمانٍ ينأى بنا عن سعادتنا العاجلة والآجلة.

١٠ـ سامح، واصفح؛ فمن سامح سامحه الله، ومن عفا عفا الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه؛ فالجزاء من جنس العمل.

١١ـ ما أجمل لحظاتِ التأمل؛ وما أجمل أن يكون لها نصيب منا في هذه العشر الأواخر.

١٢ـ إذا لم يَقْوَ رجاؤنا في هذه العشر فمتى يقوى؟

١٣ـ الرجاء الصحيح ما اقترن بالعمل لا بالأماني الباطلة.

١٤ـ أكثر من الدعاء؛ فهو بمنزلة البذر، ودع النتائج لمن قال: ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾.

١٥ـ عبادة الوثنيين من الهندوس، والبوذيين ونحوهم ـ عذاب، وقتل لشهوات النفس؛ طمعاً في سعادة موهومة.

وعبادة المسلمين أنس ونعيم في العاجل، وأجر وعطاء غير مجذوذ في الآجل.

١٦ـ أول رمضان أعيشه بدون الوالدة :

**أريد لأنسى ذِكْرَها فكأنما تَمثَّلُ لي (أمي) بكل سبيل**

١٧ـ آه ما أقسى فراق الوالدة :

**قَدْ كِدْتُ اقضي حسرة لو لم اكن متوقعاً لقياكِ يوم معادي**

١٨ـ هل يستطيع أحد أن يكتب عن أمه بعد موتها بغير دموعه؟!

١٩ـ مَنْ يستكثرُ ما يقدمه لوالديه فهو ظالم لنفسه مبين.

٢٠ـ يارب! أمرتنا بالإحسان إلى الوالدين ولو كانا كافرين؛ فما عذرنا إذا كانا مسلمين مؤمنين محسنين؟

٢١ـ أماه:

**أَعززْ عليَّ بأن اراكِ رهينةً في جوفِ أغبر قاتمِ الأسدادِ**

**أو أن تبيني عن قرارة منزلِ كنتِ الضياءَ له بكل سوادِ**

٢٢ـ كنت إذا خرج لي كتاب جديد أضعه بين يدي والدتي؛ فتقول: أرني مكان اسمك، فتقبله، ثم تدعو بالبركة.

## لطائف من سورة يوسف

١ـ في تبرئة الله ـعز وجل ـ للذئب من دم يوسف تأكيدٌ على تحريم الظلم لأيِّ أحد، ولو لصقت تلك التهمة بالذئب لَكَرِهْناه كراهيتَنا للوزغ الذي كان ينفخ النار على إبراهيم.

٢ـ قال الشيخ علي العتيق رحمه الله: «إن نفخة الوزغ على نار إبراهيم لا تؤثر شيئاً، ولكنه الخبث».

٣ـ في قوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ إشارة إلى أن الجاني مهما احترز فلا بد أن يَظْهر شيء من معالم جريمته، وإلا فهل يعقل أن يَسُلَّ الذئبُ يوسفَ من ثيابه، ولا يبقى فيه إلا شيئاً من الدم؟!

٤ـ في قوله: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ...﴾ دليلٌ على خِفَّة جسم يوسف، أو قوة حبال القوم.

٥ـ في قول الذي اشترى يوسف لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا...﴾ دليلٌ على فراسته، وقوة توسمه.

٦ـ في قوله: ﴿وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى أن الإحسان من أعظم المهيئات لنيل المقامات العالية.

٧ـ من سأل السلو عن العشق بصدق أجيب دعاؤه ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾.

٨ـ في قول صاحبَي السجن ليوسف: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إشارة إلى أن فضل الإنسان لا يخفى، بل هو كالعطر يُشَمُّ ولو أخفاه صاحبُه.

٩ـ في قول يوسف: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ... ﴾ بيان أن اتِّباع الآباء لا يُذمُّ بكل حالٍ، بل إنه يُحمد ما لم يكن اتِّباعاً على الباطل.

١٠ـ في قول يوسف لصاحبَي السجن: ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ إشارة إلى أن الشرك كان فاشياً في القوم.

١١ـ في قول الملك: ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ... ﴾ دليل على عقله، وضبطه للرؤيا.

١٢ـ في قول الملأ للملك: ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ تأييد للحكمة القائلة: الناس أعداءُ ما جهلوا.

١٣ـ في قوله ـتعالى ـ عن صاحب السجن: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ إشارة إلى أن كثيراً من الناس لا تعنيه إلا مصلحته الشخصية فحسب.

١٤ـ في سورة يوسف ذكرٌ للعزيز وللملك، والعزيز هو الوزير وليس الملك؛ وبعض الناس يخلط بينهما، ويظن أن يوسف كان عند الملك في بيته، وإنما كان عند العزيز.

١٥ـ في قول امرأة العزيز ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...﴾ فضيلة الاعتراف بالخطأ.

١٦ـ في قول يوسف: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دليل على حسن تدبير يوسف، وكمال عقله، ورزانة أخيه الذي لم يظهر عليه دهشةٌ أو اضطرابٌ يفسد المكيدة.

١٧ـ فرق بين حال إخوة يوسف لـمَّا ألقوه في غيابة الجبِّ، وبين حالهم لما قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ...﴾

ففي الأولى كانوا مرتابين، فتظاهروا بالبكاء؛ لستر فعلتهم.

وفي الثانية كانوا واثقين من براءتهم، فأكدوها بأعظم المؤكدات بالقسم واللام، وبنفي الفساد والسرقة عنهم.

١٨ـ وَضْعُ يوسفَ بمنصب يَلَقَّبُ صاحبه بـ: العزيز تدبيرٌ ربانيٌّ لطيف؛ حيث أريد ليوسف أن يَذِلَّ، فصار عزيزاً لفظاً ومعنى، اسماً ومسمىً، في الآخرة وفي الأولى.

١٩ـ في رحمة يوسف وعفوه عن إخوته لما قالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ إشارة إلى أن الكرام لا يتمتعون بأذية خصومهم إذا قَدِروا عليهم، ورأوا منهم خضوعاً واستكانة، بل يجعلون شُكْرَ القدرةِ العفوَ.

٢٠ـ في قول يوسف لإخوته: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إرشاد إلى أن الموعظة تقع موقعها إذا صَدَرت من زعيم عظيم قادر.

٢١ـ في قول يوسف لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ﴾ دليل على بلوغه أعلى مقامات المروءة؛ حيث صفح عنهم الصفح الجميل، وهو ما كان بلا عتاب، ولا تقريع.

٢٢ـ في قصة يوسف مع إخوته إشارة إلى أن الحاسد قد يكون سبباً لرفعة المحسود؛ خصوصاً إذا لزم المحسود الصبر والتقوى.

٢٣ـ للقميص في قصة يوسف شأن؛ ففي البداية كان علامة البلاء، وفي المنتصف كان سبب البراءة، وفي النهاية كان سبب الشفاء.

٢٤ـ في قول يعقوب: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ دليلٌ على قوة ذاكرته مع كبر سنه؛ حيث لم ينس ريح يوسف مع تقادم الأيام.

وفيه ـأيضاًـ إشارة إلى أن ليوسف رائحةً مميزةً محببة إلى النفس، وهكذا روائح الطيبين المحسنين قد تفيض من أرواحهم إلى أجسادهم.

٢٥ـ في قول يوسف في خاتمة القصة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ دليل على قوة علمه بالله ـعز وجلـ حيث اختار اسم اللطيف المناسب للتدبير الإلهي المصحوب بالرعاية الربانية ليوسف في جميع تفاصيل تلك القصة.

٢٦ـ في قول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إرشاد لمن نال بغيته من الدنيا أن يتطلع إلى ما هو أعلى من نعيم الآخرة، وهكذا كان يوسف ـعليه السلامـ.

وجاء في سيرة عمر بن عبدالعزيز نحوٌ من ذلك، عندما قال: «إن لي نفساً توّاقة، ما نالت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعلى منه؛ كانت نفسي تتوق إلى الإمارة، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها تاقت إلى الجنة».

٢٧ـ في قوله ـتعالىـ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ دليل على أن مكر الماكرين مهما بلغ سيعود عليهم؛

فمكرُ الله أعظم من مكرهم؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ...﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً﴾.

٢٨ـ في قوله ـتعالى- في ختام سورة يوسف: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي...﴾ إرشاد إلى أن ما جاء في تضاعيف سورة يوسف منهجٌ يقتدي به الدعاة؛ من حيث الحرص على القيام بالدعوة، وأسلوبها، وأخلاق الدعاة، وكرم نفوسهم، وترفعهم عن الصغائر، والأحقاد، واتصافهم بشتى ضروب الإحسان.

## مشهد الإحسان في سورة يوسف

جاء في آخر سورة يوسف قول الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لأهل العقول الذين يتدبرون، ويتفكرون، وينظرون في عواقب الأمور.

وإن هذه السورة لمن أعجب السور، وأعظمها؛ حيث تنطوي على عبر وأسرار تجعل المفسرين والعلماء يقلبون النظر فيها، ويستنبطون منها الدروس والعبر.

بل لقد أفرد بعضهم مؤلفاتٍ خاصةً في هذه السورة.

والحديث ههنا سيكون حول عبرةٍ عظيمة، ومَعْلَمٍ من معالم تلك السورة ألا وهو مشهد الإحسان: الإحسان في معاملة الحق، والإحسان في معاملة الخلق.

ولا ريب أن الإحسان أعلى مرتبة من مراتب الدين كما في حديث جبريل -عليه السلام- لما قال للنبيﷺ أخبرني عن الإسلام، وعن الإيمان، فأخبرهما عنهما، ولما قال أخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

ومقام الإحسان مقامٌ عالٍ عظيمٌ، والله -تبارك وتعالى- يحب المحسنين، وقد كتب الإحسان في كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة**».

وهذا الحديث إشارةٌ، ومثالٌ، وإرشادٌ إلى أن يُحْسِن الإنسان في كل عمل يقوم به، سواء في معاملته للخالق، أو في معاملته للخلق.

وفي هذه السورة يتجلى هذا المقام العظيم، وفيها تطبيق عملي لمقام الإحسان ألا وهو ما قام به نبي الله يوسف -عليه السلام- حيث لزمَ الإحسان في شتى شؤونه: في سرائه، وضرائه، وفي خاصة نفسه، ومع والديه، ومع إخوته، وفي حال الفتنة، وفي حال الانتصار، وفي حال عبادته لربه -تبارك وتعالى-.

قال الله -عز وجل- في بداية السورة: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن هذه السورة تتضمن هذا المَعْلَمُ العظيم ألا وهو معلم الإحسان.

ومن مظاهر الإحسان فيها أن يوسف ـعليه السلامـ لـمَّا رأى تلك الرؤيا العظيمة أحسن في عرضها، وأحسن في اختيار مَنْ يعرضها عليه؛ حيث عرضها على والده الذي أوتي النبوة، والحكمة.

ولا ريب أن الوالد هو الشفيق على ولده؛ حيث يتمنى له الخير، ويأمل أن يكونَ أحسنَ الناس؛ فلم يعرض يوسفُ الرؤيا على أحدٍ غيرِ والده.

ولما عرضها عليه، وأَنِس والدُه أن هذه الرؤيا حق، وأنها عظيمةـ أوصاه بألا يقص هذه الرؤيا على إخوته.

قال يعقوب ـعليه السلامـ: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يوسف: ٥ .

وناط ذلك بالشيطان، ولم يقل: إن في إخوتك شراً؛ فيكون ذلك موغراً لصدر يوسف عليهم، وإنما قال: الشيطان؛ فالشيطان ينزغ بين الناس عموماً، وينزغ بين الإخوة.

فما كان من يوسف ـعليه السلامـ إلا أن أحسن في استماع هذه الوصية، ولم يخبر بهذه الرؤيا.

ثم حصل ليوسف ما حصل عندما حسده إخوته، وألقوه في غيابة الجب، ثم لما أخرج من غيابة الجب، وشُري بثمن بخس دراهم معدودة، وحصلت له تلك الفتنة العظيمة، وذلك لما راودته امرأة العزيز -امرأة الوزير أو رئيس الشرطة في ذلك الوقت- فماذا كان منه؟ لقد واصل إحسانه، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ فأحسن عندما استعاذ بالله -تبارك وتعالى- وأحسن -أيضاً- بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ويقصد بربه ههنا: سيده الذي هو زوجها، ففيه إحسان في معاملة الخالق، ومعاملة المخلوق، ومقابلة الحسنة بالحسنة، فقال: لا يليق بي أن أخون من أحسن مثواي، إنما يليق بي أن أفيَ معه غاية الوفاء، و ألا أستسلم لهذه الفتنة العظيمة.

ثم أحسن لما ألفيا سيدها لدى الباب، وذلك لما جاء العزيز -زوج المرأة- ورأى هذا المشهد أمامه، فأرادت هذه المرأة أن تدفع عن نفسها التهمة، وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فماذا قال يوسف -عليه السلام-؟ لقد أحسن في الرد، ولم يظلم، ولم يتجاوز، ولم يقل: هذه المرأة فيها وفيها، وكيف يليق بك أيها العزيز أن تجعلها زوجة لك؟

لا ، إنما أجاب بما يناسب هذا المقام؛ حيث قال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ ولم يزد على ذلك.

ولما حضر النسوة اللاتي شَمِتْنَ بامرأة العزيز ، أو ربما أَرَدْنَ أن يرين ما تراه امرأة العزيز من هذا الرجل الذي شغفها حباً ، أو أن امرأة العزيز أرادت أن تجعل لهن الحِبالةَ؛ لكي يقعن في شراك يوسف؛ فلما أعتدت لهن متكأً ، وقالت : اخرج عليهن ، أكبرنه لما رأينه؛ أكبرن جماله الحسيَّ الظاهر ، وبهرهن أكثر من ذلك جمالُه المعنوي الباطن ، وما كان عليه من العفّة التي ينطوي عليها ، فجمال الباطن أعظم من جمال الظاهر ، كما قال الأول :

إذا أخو الشمس أضحى فعله سمجاً      عَدَدْتَ صورتَه من اقبح الصور
وَهَبْكَ كالشمس في حسنٍ الم ترنا      نَفِرُّ منها إذا مالت إلى الضرر

قال الله ـعز وجلـ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

وقد كان سائداً عندهم أن الملائكة على درجة عالية من الطهر ، والقداسة ، والعفة فشبَّهنه بالمَلَك.

ولما حصل ذلك كلُّه ماذا كان من يوسف ـ عليه السلام ـ لقد أحسن في هذا المقام؛ حيث لم يَطِشْ تيهاً، ولم يتعاظم كبراً وزهواً، وإنما لزم التواضع والسكينة.

ولما دخل يوسف السجن أحسن ـأيضاًـ في معاملة من في السجن، ولهذا قال له صاحبا السجن: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حيث رأوا من أخلاقه وحسن معاملته ما جعلهم يقولون ذلك.

ثم لما عرضوا عليه الرؤيا لم يستنكف عن الإجابة وتعبير الرؤيا، وقَبْلَ أن يجيبهم دعاهم لما هو أهم من الرؤيا؛ حيث دعاهم إلى توحيد الله، والبعد عن الشرك.

ولما قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بيَّن لهم أن هذه النعمة هي أعظم النعم، وبيَّن أن الناس فيها إما شاكر، وإما كفور.

وهكذا أحسن في اغتنام الفرصة لما طلبوا منه التأويل؛ فأرشدهم هذا الإرشاد العظيم.

وأحسن كذلك في تفسير رؤيا الملك وذلك لما أرسل إليه الملك حينما رأى تلك الرؤيا العظيمة، وأراد أن تفسر له، وسأل الناس عن تلك الرؤيا التي رآها فأخبروه أنهم ليسوا من أهل التعبير.

ثم تذكر الفتى الذي هو صاحب السجن الذي ما أوصاه به يوسف من أن يذكره عند ربه، فقال ذلك الفتى: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾.

فأتى إلى يوسف -عليه السلام- وأخبره برؤيا الملك فلم يقل يوسف: أريد أن أعبرها، وأشترط أن أخرج، لا، إنما هو محسن؛ حيث عبرها لهم أحسن تعبير، ووقع ذلك التأويل موقع القبول لدى الملك، وطلب أن يؤتى بيوسف.

ولما دعي يوسف إلى الملك، وجاء الأمر بإخراجه - أحسن في تلقي الخبر؛ فلم تأخذه الدهشة من شدة الفرح فتخرجه عن رزانته، وتدبره للعواقب؛ بل أراد قبل ذلك أن تستبين براءته، فقال لصاحبه: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

فلم يَزِدْ في عرض القضية، وإنما ختم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فما اتهمهن بتهم تزيد على الحد، وإنما قال: اسألهن عن تلك المكيدة التي عملنها بي.

وأحسن ـ كذلك ـ لإخوته لما قالوا: إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل.

ولو كان غير يوسف، لربما قال: أنتم ماذا فعلتم، وماذا صنعتم، ولكن يوسف أسَرَّها في نفسه، ولم يبدها لهم، بل قال في نفسه: ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً ﴾.

ولما أتوه أذلة صاغرين لم يقرِّعهم، ويمكر عليهم وابلاً من العتاب، بل قال: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي: أن هذه صفحة طويت، وناطها بالشيطان، فقال: ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فزاد على العفو بالدعاء، وهذا غاية ما يكون في الصفح، والإحسان.

ولهذا قال الله -عز وجل-: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فالله -عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فكم من الناس من يحسن إلى الناس أو يحسن إلى والديه، أو يحسن إلى أولاده، ، أو يحسن إلى أصدقائه، ثم يقول: ما قوبلت إلا بالكنود والجحود، ولم يعترف أحد لي بفضل، يقال له: ليس الأمر كذلك، فالله -سبحانه وتعالى- مطلع عليك، ولن يضيعك في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال يوسف في آخر القصة: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ

اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإذا اجتمعت التقوى مع الصبر: تقوى الله -عز وجل- والصبر على الناس خصوصاً فيما يلقاه الإنسان من أذى فإن الله لا يضيع من كان كذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فهذا شيء من مشاهد الإحسان في سورة يوسف - عليه السلام -.

## تعامل موسى -عليه السلام- مع الهم

كل إنسان يَدِبُّ على وجه هذه البسيطة يتمنى من صميم قلبه أن يعيش بسعادة وطمأنينة، وهدوء بال، يستوي في ذلك الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، وإن كانوا يختلفون في الوصول إلى ذلك المطلب على حد قول الأول:

**كل من في الوجود يطلب صيداً    غير أن الشباكَ مختلفاتُ**

فطرائق الناس شتى في الوصول إلى السعادة، وطرد الهم، وذلك حديث يطول من حيثُ نظراتُ الفلاسفةِ، والحكماءِ، والمفكرين، والأدباء، وغيرهم.

ولا ريب أن ما جاءت به الأنبياء هو الطريق الأعظم للوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة؛ إذ هم مبعوثون من لدن خالق النفس ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

والحديث ههنا ليس عن طرائق السعادة، ولا عن نظرة الناس لها، ولا إلى الطرق الموصلة إليها.

وإنما سيكون أقربَ إلى التطبيق العملي منه إلى الجانب النظري؛ حيث سيدور حول سيرة نبي من أولي العزم في التعامل مع الهم، والسعي في طرد القلق، وجلب السعادة.

ألا هو نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ وسيكون الحديث في ذلك الشأن أقربَ إلى الإشاراتِ منه إلى التفصيل والإسهاب.

فسيرة ـ موسى عليه السلام ـ في ذلك الشأن تحمل عجباً؛ إذ تنطوي على أسرار بديعة، وأصول عظيمة في التعامل مع الهم.

يقول الله ـ عز وجل ـ بعد خطابِه لموسى ـ عليه السلام ـ وإراءتِه شيئاً من آياته الكبرى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾.

ففي هذه الآية أمرٌ من الله لموسى، وتكليف له بتلك المهمة التي تنوء بحملها الجبال؛ حيث أرسله إلى جبار عنيد متكبر، أوتي ما أوتي من القوة والجبروت والتمكبن، وبلغ به الكبر مبلغاً يقول فيه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى ﴾ ويقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾.

ولما جاء موسى التكليفُ من لدن ربه للقيام بتلك المهمة استحضر ـعليه السلامـ عِظَمَها، واستشعر أنه قد بعث إلى بني إسرائيل وهم قوم قد عرفوا بالعناد، وغِلَظ الرقاب، وقلة الاستجابة لداعي الحق؛ فما كان منه ـ عليه السلام ـ إلا أن لبَّى نداء ربه، وفزع إليه ـعز

وجل- بدعوات تثبِّت جَنانَه، وتقوي عزيمته، وتَقيه عثارَ الطريق، وكان أول تلك الدعوات هي قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

وإنما بدأ بتلك الدعوة؛ لعلمه أن هذه المهمة الجسيمة تحتاج إلى قدر كبير من انشراح الصدر، وقوة القلب، وسعة البال، ولإدراكه أنه إن ضاق صدره تنغصت حياته، ولم يصدر عنه خير كثير، ولا عمل جليل.

ثم إنه ـ عليه السلام ـ قد عانى من الغم ما عانى وذلك عندما قتل القبطي، وخرج خائفاً يترقب، وما مر به من أحوال أقلقت باله، وأفقدته طمأنينته حتى قال له الرجل الصالح: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

بل إنه ـ عليه السلام ـ صرح بخوفه من الهم عندما قال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾.

لذلك كلّه بدأ دعواته بقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

ولا ريب أن الدعاء وحده دون أخذٍ بالأسباب خلل؛ إذ لا بد مع الدعاء من الأخذ بالأسباب.

ولو كان الدعاء وحده كافياً لاقتصر المسلمون على قولهم في صلواتهم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ دون عمل وسعي في سلوك ذلك الصراط المستقيم.

وهذا ما كان حاضراً في ذهن موسى- عليه السلام - حيث أخذ بكل ما يستطيع من الأسباب الجالبة لشرح الصدر، الطاردة لكل ما يحول دون ذلك.

ومما أخذ به من أسباب أنه دعا ربه بدعوات عظيمة اشتملت على حسن السؤال، وجميل التضرع، ونبل الهدف والغاية؛ حيث قال -عليه السلام- : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾.

وإذا يسَّر الله له أمره زاد انشراح صدره، وأقبل على الدعوة بكل تدفُّع وقوة.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ كي يُفصح عما عنده من الحق، فلا يبقى بعد ذلك حجةٌ لمعاند أو متكبر.

والإنسان إذا أبان عما لديه بكل وضوح، ولم يبقَ الكلام متلجلجاً في نفسه - انشرح صدره، وهدأ باله.

ثم أدرك موسى أن هذه المهمة تحتاج إلى مؤازرة وإعانة، ومشاركة على الخير فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

ولا ريب أن القريب المشارك في الخير، الذي يحمله ما يحمله قريبه من أعظم العون على المهمات مهما جَلَّت.

وإذا كان ذلك القريب أخاً كان ذلك نوراً على نور، وخيراً على خير.

وإذا كان ذلك الأخ مساعفاً موافقاً لأخيه كان ذلك أبلغ في الإعانة.

يقول الحكيم العربي:

أخاك أخاك إن من لا أخاً له     كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ

وإذا قام المرء بعمله على أتم وجه انشرح صدره، واتسعت نفسه.

ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ ختم ذلك الدعاء بخاتمة عظيمة هي من أعظم أسباب إجابة الدعاء، إلا وهي نبل الغاية، وشرف المقصد؛ حيث قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾.

فالغاية من ذلك والهدف هو توحيدُك يا ربنا ، وتنزيهُك عما لا يليق بك ، وذكرُك الذي هو الغاية من كل قربة يُتقرب بها إليك.

وتلك الغاية هي أقصى ما يكون من السعادة؛ لذا كان موسى حرياً بإجابة تلك الدعوات ، قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾.

ولما أخبره ربه ـجل وعلاـ أنه قد أجاب دعاءه ، وآتاه سؤله هل وقف عند هذا الحد ، واكتفى بتلك البشارة ؟

لا ، بل إن تلك البشارة كانت كالوقود له؛ حيث أخذ بالأسباب التي تعينه على جلب السعادة لنفسه ، وطرد الهم ، والمضي قدما في تبليغ دعوة ربه.

ومما أخذ به ـ عليه السلام ـ أنه طرد شبح الخوف عن نفسه؛ إذ الخوف من أعظم موانع السعادة؛ فلما شعر موسى بالخوف من فرعون إنْ هو قَدِم عليه؛ لعلمه بطغيانه وجبروته ـ قال مخاطباً ربه ـجل وعلاـ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾.

فأجابه ربه بقوله : ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾.

فلما استشعر موسى معيَّة الله الخاصة سكنت نفسه، واطمأن قلبه، وأقبل على دعوة فرعون، ومحاصرته بالحجج الرائعة، والبراهين الساطعة.

ومما أعانه على ذلك ـ أيضاً ـ أخذه بوصية ربه إذ قال له: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

فكان ـعليه السلامـ كثير الذكر لله ـعز وجلـ وذلك من أعظم أسباب سعادته، وقوة قلبه، ومضيه في الدعوة.

ومما أخذ به موسى ـ عليه السلام ـ في ذلك الصدد أنه لم يستسلم لاستثارة فرعون واستفزازه له؛ حيث أراد فرعون أن يستثير غضب موسى، ويشتت ذهنه، ويصرفه عما هو بصدده، ومن جملة ذلك أنه قال له: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ يشير بذلك إلى قتل موسى للقبطي، فلم يستجب موسى لذلك وإنما قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ﴾.

ولم يكتف فرعون بذلك، بل رمى موسى بالجنون؛ حيث قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ الشعراء: ٢٨.

ولا ريب أن الرمي بالجنون من أعظم ضروب الاستفزاز، واستثارة الغضب.

ثم انتقل إلى تهديده، فقال: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾ الشعراء: ٢٩ .

ثم اتهمه بعد ذلك بالسحر، وأنه يريد أن يخرج الناس من أرضهم بسحره، وأن تكون له ولمن معه الكبرياء في الأرض.

ثم انتقل إلى نوع آخر من الاستفزاز، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الزخرف: ٥٢ .

يعير موسى بحبسةٍ كانت في لسانه.

ولكن موسى -عليه السلام- لم يستجب لذلك، وإنما واصل طريقته في إيراد الحجج التي بهرت فرعون وقومه؛ فصارت الغلبة لموسى - عليه السلام -.

ولولا أن الله -عز وجل- ثبَّت موسى، وربط على قلبه في تلك المواقف الصعبة لاضطرب، ولفقد صوابه، ولما كانت له تلك المقامات العالية التي قام بحقها بجأش رابط، ونفس مطمئنة.

وهكذا انتصر موسى - عليه السلام - على الغم بفضل الله - عز وجل - ثم بإحسانه وأخذه بالأسباب.

ولهذا كان مما امتَنَّ الله عليه أنْ نجاه من الغمِّ، قال -عز وجل-:

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾.

بل إن إحسان موسى قبل النبوة، وكمال مروءته من أعظم المعينات له على نيل تلك المواهب العظام من لدن ربه -جل وعلا-.

قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

فكان من إحسانه -عليه السلام- سقياه للفتاتين اللتين رآهما تذودان عند الماء، فتحركت في نفسه دواعي الشهامة، واهتزت فيها بواعث الأريحية؛ فسقى لهما، وسار معهما وهو ناكس الطرف، ثم تولى إلى الظل لا يريد جزاءً ولا شكوراً.

بل إنه لما أراد والد الفتاتين تزويجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج فإنْ أتمَّ موسى عشراً فمن عنده - أبت له شهامة خاطره، وكرم نفسه إلا أن يتم العشر كاملة، ولا ريب أن ذلك من قبيل الإحسان، والإحسانُ من دواعي السرور وطرد الهم، ومن مهيئات السؤدد، والترقي في مراقي الفلاح.

وكان من إحسانه - أيضاً - تذلله إلى الله - عز وجل - وإظهار الفاقة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ القصص: ٢٤.

**وبالجملة** فهذه إشارات مما تحمله سيرة موسى - عليه السلام - في هذا الشأن، والأمر أعظم من ذلك، والمقام لا يحتمل إلا القليل منه.

## خصومة شريفة معاصرة

سبق أن كتبت مقالة عنوانها (خصومة الشرفاء العظماء) ونشرت في حينها، وخرجت ضمن كتاب (خواطر).

وذكرت فيها شيئاً مما يكون بين الأكابر من الخصومة الشريفة التي يستدعيها سبب معقول، وتتقارع فيها الحجج بالحجج، دون مهاترة، أو مسابة.

وبعد سنوات من ذلك المقال وقعت على خصومة شريفة تستحق الوقوف عندها، واستلهام العبر منها.

هذه الخصومة وقعت بين الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمود شلتوت وكلاهما من أكابر العلماء في القرن الرابع عشر الهجري، وممن تولى مشيخة الجامع الأزهر.

وقد كان بينهما خصومة قوية في مسألة علمية، وذلك لما نشر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله مقالة عنوانها (الهجرة وشخصيات الرسول).

وهذه المقالة تدور حول رأي للشيخ شلتوت، مفاده أن الذي يعد شرعاً دائماً هو ما يرجع إلى شخصيات الرسول ﷺ من العقائد، وأصول الأخلاق، والعبادات.

وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام، أو المفتي، أو القاضي ـ فليس بشرع دائم، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب.

فلقي ذلك الرأي ضجة كبرى في مصر، وأثار كثيراً من أهل العلم، ومنهم الشيخ الخضر الذي نقد تلك المقالة نقداً علمياً عظيماً قل أن يوجد له نظير في العصور المتأخرة من حيث قوته، وعلميته، وبراعة نقده ونقضه.

يقول الشيخ محمد الخضر في مقدمة ذلك النقد: «أحضرت ذلك المقال المنشور تحت عنوان (الهجرة وشخصيات الرسول) وقرأته قراءةَ خالي الذهن مما قيل فيه، فما لبثت أن لاقتني جمل صيغت في قالب ذي وجهين، وأطَلّت عليَّ آراءٌ قلت لمّا لمحتها: أما وجدت هذا الآراء وادياً غير هذا الوادي، أو عهداً غير هذا العهد؟.

وأمسكت القلم ناقداً لها بعدل، مناقشاً لها بإنصاف.

وسأسلك ـبتوفيق الله تعالىـ الطريقة التي اخترتها لنفسي في مناقشة ما يبدو لي أنه جدير بالمناقشة؛ فأنقل عبارات كاتب المقال بأعيانها؛ لأسير أنا والقارئ في النقد جنباً إلى جنب، ولا أظلم صاحب المقال، ولا أظلم الحق أو العلم».

ثم شرع رحمه الله في نقد المقال على النحو الذي وعد به.

يقول الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله عن تلك الخصومة: «يذكر القراء أن الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة الإسلامية كتب في بعض أعداد مجلة (الرسالة) مقالاً عنوانه: «الهجرة وشخصيات الرسول» ذهب فيه مذاهب أهاجت عليه المسلمين في مصر وبعض الأقطار العربية، ورأى الأستاذ الخضر أن في هذا المقال من الآراء ما هو خطأ محض، ولا يصح السكوت عليه، أفتدري ماذا فعل؟ لم يَثُرْ، ولم يغضب، ولم يَرُدَّ على مقالة الأستاذ شلتوت بمقال مثله في عجلة وتسرع؛ بل أقبل على موضوع المقال، فدرسه دراسة العالم الخبير، وجمع الدلائل والشواهد على ما فيه من أخطاء، ثم جلس إلى مكتبه الهادئ العامر، بمكتبته العظيمة في دار جمعيته، وكتب كتابه القيم «نقد مقالة الهجرة وشخصيات الرسول» وطبعه فيما يزيد على تسعين صفحة، فعلى الذين قرؤوا مقالة الشيخ شلتوت، أو سمعوا بها: أن يحرصوا على قراءة هذا الكتاب الذي يعد مثلاً على الإنصاف في النقد، والعفة في

المجادلة، والحكمة في الدعوة؛ حتى يتبين لهم الحق بعد أن يسمعوا كلام الفريقين» أ.هـ.

ولما مات الشيخ الخضر في ١٣٧٧/٧/١٣هـ نُعي الخبر إلى الشيخ محمود شلتوت؛ فماذا كان منه لما سمع ذلك النبأ؟.

لعل الذي شهد ذلك الموقف هو خير من يحدثنا، وهو الشيخ طه محمد الساكت أحد علماء الأزهر، يقول الشيخ طه: «ما كنت أحسب ـ وأنا أنعى إليه[١] شيخنا وإمامنا الراحل[٢] وقد أسلم الروح إلى بارئها ـ إلا أنه يجاملني بكلمة عزاء تمر كما يمر غيرها من الكَلِم.

ولكن ما كان أعظمَ دهشتي حينما فزع واسترجع، ثم أخذ يلقي عليَّ درساً في تقدير العظماء الراحلين، درساً خليقاً بأن يسجل ويروى في تاريخ الخالدين.

كانت بين الشيخين خصومة في بعض مسائل العلم، ولكنها كانت خصومة نبيلة كريمة من قبيل (الخصومة بين الأكابر).

وكان من دأب فقيدنا الراحل ـ تغمده الله برحمته ـ: أن يسجل مسائل الخلاف بينه وبين خصمه في مقال أو رسالة، ثم يأتي عليها

---

١ ـ أي: الشيخ محمود شلتوت.

٢ ـ أي: الشيخ محمد الخضر حسين.

بالحجة الساطعة، والبيان الناصع، في أمانة من النقل، وعفة من القول، هما المثال الأعلى لمن يبتغي الإنصاف والحق من أعدل طريق وأمثله.

ويقرأ خصمه الرد عليهم في مقالاته وكتبه، وكلهم أو جُلُّهم من عِلْية القوم، وأكابر الكتاب، فيعجبون للأدب الرشيد، والقول السديد، والحجة البالغة، والعلم المصفى، والحكم البصير النافذ، الذي يتقدمه الإخلاص والإيمان، ويصحبه العدل والإحسان، فيخشع له كل عالم وأديب، ويهابه كل دفع أو تعقيب.

لكن النبلاء من خصمه، يفيدون من ذلك النبع الفياض، والأدب العالي الرفيع، ثم ينوِّهون به في حياته، ويدعون إلى التخلق به بعد وفاته، وكذلك فعل (الرجل العظيم).

كانا عضوين بالمجمع اللغوي، إلا أن (إمامنا) [١] كان أسبق؛ إذ كان ركناً من أركان المجمع منذ أنشئ، وكانا عضوين في جماعة كبار العلماء، إلا أن (عظيمنا) [٢] كان أسبق منذ بضع سنين.

---

١ ـ الشيخ محمد الخضر حسين.

٢ ـ أي: الشيخ محمود شلتوت.

فلما تقدم إمامنا إلى عضوية الجماعة، ظن من لا يعرفون (الرجل) [١]: أن الفرصة قد هيئت للوقوف في طريق خصمه، لكنها كانت مفاجأة كريمة حاسمة أن زكّاه الخصم النبيل وهو يقول: «إنَّ من لا يزكي السيد الخضر في عضوية الجماعة، فإنما يلغي عقله، أو يسقط نفسه»، أو قال كلمة نحوها.

فلما قضى الله قضاءه، واستأثر شيخنا الخضر برحمته هزني الرجل بكلماته هزاً وهو يدعو إلى التأسي به، حتى كأن المسرة كانت ترتجف من هول ما أصابه، أو من عظمة ما يقول.

أما بعد:

فإن أهمك أن تعرف (الرجل) فحسبك أنه يشغل مركزاً اجتماعياً خطيراً، ما خلا منصباً أزهرياً كبيراً، فإن لم تعرفه بعد ذلك، فحسبك درس عظيم، من رجل عظيم، في إمام كريم، عاش في الله، وجاهد في الله، ثم مات في الله، ورحل ـ بإذن الله ـ إلى الرفيق الأعلى ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ النساء: ٦٩ ».

---

١ ـ أي: محمود شلتوت.

وبعد فهذه خصومة معاصرة ترينا ما ينبغي أن يكون عليه الخلاف من الشرف، والنزاهة، والبعد عن أساليب المراوغة، والتربص، والدناءة.

ولو ساد ذلك الأدب لكان الخلاف رحمة، وارتقاءً بالعقول، والعلوم.

## مَوْقِعَكَ

الموقع: هو المكان كما هو معلوم، ومعناه يختلف باختلاف السياق والاصطلاح؛ فالموقع الإعرابي -على سبيل المثال- عند النحاة هو موقع الجملة، أو الكلمة؛ إذ قد تكون الجملة لا محل لها من الإعراب، وقد يكون لها محل، والكلمة -كذلك- قد تكون عمدة، وقد تكون فضلة، والفضلة -كذلك- قد يصلح الاستغناء عنها، وقد لا يصلح؛ إذا كان الكلام لا يستقيم إلا بوجودها، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ فكلمة لاعبين حال، والحال فضلة، وهي في هذا السياق لا يصح الاستغناء عنها.

والحديث ههنا ليس عن مسائل النحو، وإنما هو عن بَرمجةِ الإنسانِ نَفْسَهُ، ومعرفتهِ موقِعَه؛ فإن ذلك يكفيه كثيراً من الشرور، وينقذه من المواقف المحرجة، ويرفعه في سماء المجد درجات.

ولمزيد من إلقاء الضوء على هذا الأمر يقال: إن من أعظم ما يحسن بالإنسان معرفته أن يعرف موقعه في كل زمان ومكان؛ إذ قد يحسن به إذا جلس في مجلس أن يكون هو الصدر، وإذا جلس في مجلس ثانٍ أن ينزوي، وإذا جلس في مجلس ثالث أن يكون بين بين.

وكذلك الحال بالنسبة للمواقف؛ فتارة يجمل به أن يكون رأساً، وتارة يكون بخلاف ذلك.

ثم إن معرفته بنفسه قد تجعله يُقْدِمُ أو يُقْصِر، وقد يلائمه ما لا يلائم غيره، والعكس.

ويدخل في هذا القبيل معرفة الإنسان إمكاناتِه؛ بحيث لا يتقحم إلى أمور لا طاقة له بها، ولا يتوانى في الوقت نفسه عن أمور يطيقها.

والحاصل أن معرفةَ الإنسانِ موقعَهُ تريحه من أعباء كثيرة، وتجلب له خيرات وفيرة؛ فيتكلم حيث يَحْسُن به الكلام، ويصمت حيث يحسن به الصمت، ويقدم حيث يحسن به الإقدام، ويحجم حيث يحسن به الإحجام، وهكذا.

أما إذا فَرَّط الإنسان بهذا الشأن فلا تسل عما يعقب ذلك من الخلل، والتخطي إلى المقامات التي لا يحسن تخطيها؛ فتسود بذلك روح الفوضى، والتخبط.

وكم تلاحظ من أناسٍ يتكلمون في مناسبات أو مجالس دون أن يراعوا حدود اللياقة واللباقة، وكم من الناس من يظن أنه جدير بصدارة كل مجلس.

وكم من أناس يسوق أحاديث وهي لا تليق بذلك المكان، أو الجلاس.

وكم من أناس يريدون الهَزْل فلا يحسنونه، ويرومون التوقر فيَثْقُلون، ويُثْقِلون.

وبالجملة فإن الأمثلة على ذلك كثيرة، والمقام لا يحتمل الإطالة.

ودعني أيها القارئ الحصيف أضرب لك بعض المواقف على شيء مما مضى ذكره؛ يُحَدِّثني أحد الأصدقاء أن قريباً له كان يعمل عند ذي وجاهة ومنزلة، وفي يوم من الأيام قام ذلك الوجيهُ ذو القدرِ والمكانةِ بمدِّ يده على ذلك الرجل الذي يعمل عنده إما على سبيل الغضب، أو على سبيل المزاح، أو نحو ذلك، فَقَبِلها ذلك الرجل، ولم يبدِ أيَّ تبرم، أو شكوى.

ولكنه فوجئ في الوقت نفسه أن أحد زملائه ممن يصحبون ذلك الوجيه يقوم بضربه؛ ليكمل ما بدأه ذلك الوجيه؛ فما كان من ذلك الرجل إلا أن أخذ بزميله الذي ضربه، ورَفَعه عن مستوى الأرض، ثم ألقى به؛ فاستغرب ذلك الزميل، وقال: ما هذا؟

فقال له صاحبه: ما الذي حملك على ضربي؟ أغَرَّك أنْ ضَرَبَني فلان؟ هو يستحق أن أحتمل زلته، أو غضبته، أو دالته؛ لما له من المكانة، والمنزلة، والحقِّ عَلَيّ.

أما أنت فَمِثْلِي؛ فلا يحق لك أن تتعدى حداً من حدودك؛ فلما رأى الوجيه هذا المشهد، وسمع التسويغ ـ انفجر ضاحكاً، وأيَّد ذلك التصرف.

ولو أن صاحبنا الذي جارى الوجيه كان عالماً موقعَه، وما يليق به ـ لما وَقَعَ في ذلك الخطأ.

وأذكر أن أحد المجالس يتصدره عالمٌ كبيرٌ، والناس من حوله من أكابر أهل العلم سكوتٌ، وكأن على رؤوسهم الطير؛ فلا يكاد أحدٌ منهم ينبس ببنت شفة.

وكان في المجلس إنسان عاديٌّ، وعنده شيء من العلم؛ فما كان منه إلا أن أخذ يجادل ذلك العالم، ويسوق مسائل باردة أثقلت على الحاضرين، وأورثتهم الضيق، والإحراج.

وفي يوم من الأيام كان هناك مجلس أنسٍ، ومطارحةٍ، ومسامرةٍ، وتجاذبٍ لأطراف الأحاديث.

وكان من ضمن الحاضرين رجلٌ معروف بحسن الكلام، والتفنُّن في إيراد القصص، والأخبار، والأشعار.

وكان الحاضرون على درجةٍ عاليةٍ من المتعة والأنس بتلك الأحاديث العالية التي يسوقها ذلك الرجل، بل كانوا يستمطرونه الحديث كلما هَمَّ بالسكوت.

وكان من بين القوم مَنْ ينازع الحديث، ويثقل على الحاضرين بأحاديثه الباهتة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فكان كما قال الحكيم العربي:

**أتى زيدٌ وأسرف في هَذاءٍ — تضيق به صدورُ السامرينا**
**يُحَدِّثنا فلا يروي غريباً — ولا يبدي لنا رأياً رصينا**
**كمثل رَحىً تجعجع طولَ ليلٍ — ولا تُلْقِي على ثُفْلٍ طحينا**

ولو أنه أدرك مكانَهُ، وعرف موقعَه ـ لما أوقع نفسه بذلك الحرج.

وأعرف أناساً يثق أحدهم بنفسه ثقة عمياء، فإذا دهمت الناس داهية دهياء، فقيل: من يقوم بشأنها؟ بادر إلى التصدي لها، وهو ليس في عيرها ولا نفيرها؛ فإذا توغل في لُجَجِها طاش لُبُّه، وحارَ في أمره، وصار يبحث عن الخلاص.

والمقصود أن البصير بنفسه يعلم أنه ليس كلُّ ميدانٍ ميدانَه ولا كل مناسبة مناسبته، ولا كلُّ جوٍّ جوَّه؛ إذ قد يكون مقبولاً عند قوم،

ثقيلاً عند آخرين ، وقد يكون عَذْباً في مناسبة ، وعذاباً في أخرى؛ فلا يليق به أن يوقع نفسه في مواقع لا تحمد.

ثم إن الأحاديث التي تطرح قد يكون هو سيدَها ، وقد يكون له نصيب منها ، وقد لا يليق به أن يخوض في شيء من ذلك حتى يخوضوا في غيره.

وصفوة المقال أن معرفةَ الإنسانِ موقِعَهُ ، وماذا يراد منه في كل وقت ، ومناسبة ـ سبيل إلى السلامة ، وأمان من الندامة.

وذلك كله راجع إلى توفيق الله ـعز وجلـ ثم إلى ذوق الإنسان ، ودَرَبَتِه ، وتقلبه في الأحوال ، وسبره سيرَ عظماءِ الرجال.

## الصراحة المظلومة

كثيراً ما يُثنى على فلان من الناس بأنه صريح من جهة أنه يجهر بما في نفسه من نحو الآراء، والعواطف؛ فلا يكتمها، ولا يَدُلُّ عليها بتعريض، أو كنايات خفية.

وكثيراً ما تسمع من بعض الناس فخره بنفسه بأنه صريح، وأن صراحته وليدة الشجاعة، والإخلاص، والسلامة من النفاق والمواربة.

وقد يأتيك إنسان ـ أحياناً ـ فيقدم لك مقدمة يقرر فيها: أن المؤمن مرآة أخيه، ثم يمطر عليك بعدها وابلاً من الملاحظات دون مراعاة للذوق، أو أسلوب النصيحة.

ثم يختم ذلك بقوله: أنا صريح أضرب بالوجه مباشرة!.

وما هكذا تورد الإبل، ولا كان ذلك من سنن الإسلام، ولا من هدي سيد الأنام؛ فلقد بوب الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الأدب من صحيحه باباً سماه: (باب من لم يواجه بالعتاب) وساق تحته حديث: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؛ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم خشية له**» (٦١٠١).

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها؛ فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه» (٦١٠٢).

وفي مقابل ذلك تجد من يبدي الملاحظات تلو الملاحظات في المجالس والمنتديات على فلان من الناس في غَيبته.

وإذا لامه أحدٌ على هذا الأسلوب، قال: أنا صريح، ولا أوافق على الأخطاء، ولابد لي من إبداء الملاحظات التي أراها.

وإذا قيل له: واجهْ صاحبَ الخطأ خصوصاً إذا كان ذلك ميسوراً ـ تعلل بأنه يستحيي منه، ولا يريد مواجهته بما يكره.

ولا ريب أن هذا المفهوم للصراحة ظلم لها، ووضع لها في غير مواضعها.

والحقيقة أن الصراحة التي تعد من خصال الحمد ـ واقعة بين طرفين مذمومين؛ فطرف الإفراط فيها يرجع إلى العجلة، والطيش، وقلة التروي، وضمور الذوق، وقلة النظر فيما تثيره بعض الأقوال الصريحة من عداوات خاصة، أو فتن عامة، وما تجلبه من أذى، وهمٍّ لمن تُوَجَّه إليه.

وجانب التفريط فيها يرجع إلى علة الجبن، أو الطمع، أو الجهل بما تأتي به الصراحة من خير كثير، وثمارٍ يانعة.

فليس من شرط الصراحة أن يكون الإنسان صفيقاً، قليل الذوق، لا يراعي المشاعر، ولا يتحرى الأساليب التي تجعل الصراحة خفيفة الوقع على الأسماع.

وليس من شرطها أن يُفْصح الإنسان عما بَدَا له في أي صورةٍ ما؛ دون مراعاة لعامل الزمان، والمكان، والأحوال، والأشخاص.

ثم إن المرآة -كما يزعم بعضهم أنه مثلها- لا تأتي إلى الإنسان لتريه عيوبه، وإنما هو الذي يجيء إليها.

كما أنها لا تريه عيوبه فحسب، بل تريه - مع ذلك - محاسنه.

كما أنها تريه ظاهره لا باطنه ومقاصده، وتريه وجهه لا قفاه، إلا إذا كان ذلك بجمع مرآتين.

وليس من شرط الصراحة ألا يبدي الإنسان إلا العيوب، والمكاشحة بالعداوة، كما يصرح بعضهم لفلان من الناس بأنه يبغضه، وأنه صريح في ذلك.

بل قد تكون الصراحة في إبداء المشاعر الطيبة، والعواطف النبيلة، والتكرم بإظهار الشكر، والاعتراف للمحسن؛ فهذا نوع من الصراحة المحمودة، وبعض الناس لا تطاوعه نفسه على التصريح بمثل هذه المشاعر.

ومن الإفراط في الصراحة -كما يقول العلامة الشيخ محمد الخضر حسين- ما يقوم به أولئك الذين لا يحكمون سياسة الأمور، ولا يرون أن الدهاء خصلة محمودة، ولا يرون أن من الدهاء أن يُبقي الرجل بعض آرائه في نفسه، ولا يحرك بها لسانه؛ حيث يرى أن بعض النفوس لم تتهيأ لقبولها، أو أن الحال لا يساعد على إنفاذها، فتراهم يصرحون بما يجلب الضرر، ويفسد علائق الود.

ومن التفريط في الصراحة أن يرى الإنسان عِرْضَ أخيه المسلم يُنْتَهك في مجلس، وأن الظلم يقع عليه من قبل من لا يرجون لله وقاراً؛ فلا يتحرك للذبِّ عن أخيه، مع أنه قادر على ذلك.

ومن التفريط في الصراحة ما يكون من بعض من لهم كلمةٌ ودالة، وقَدْرُ سِنٍّ أو علم؛ فيرى الخطأ من فلان على فلان رأي العين، ولا يخطر بباله أن يرد الخطأ على صاحبه، مع أن ذلك لا يجلب له أدنى ضرر؛ ولكنها المهانة والخور يضربان عليه سرادقاً من الإحجام عن تلك المبادرة النافعة.

وليس من الإفراط في الصراحة أن يخشى الرجل في سكوته عن قول الحق ضياعَ الحق، وظهور الباطل مكانه؛ فيصدع بكلمة الحق موطناً نفسه على احتمال ما يلاقيه من أذى؛ فلا يُعَدُّ القاضي مالكُ بنُ سعيد الفاروقي قد أفرط في الصراحة؛ إذ أمره الحاكم العبيدي بأن يكتب سبّ الصحابة على أبواب المساجد، فأبى أن يفعل، وكتب عليها: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة: ١١٧.

ولما قال له الحاكم: هل فعلتَ ما أمرتك به؟ قال: نعم، فعلتُ ما يرضي الرب ـعز وجلـ وقرأ عليه الآية، فأمر بضرب عنقه، فمات

شهيداً، وحماه الله من أن تكتب يمينه شيئاً يجر إليه عاراً في الدنيا، وخزياً في الآخرة.

ولكن ينبغي أن يراعى أن الذي قام بذلك العمل قاضٍ له وزنُه، ونظرتُه، وتدبره في العواقب، ومعرفته ما يجب عليه.

ويمثل ذلك الطريق المعتدل للصراحة ـ كما يقول الشيخ الخضر ـ أولئك الذين يجمعون إلى الإخلاص والغيرة على الإصلاح رويةً ودهاءً؛ فالإخلاص والغيرة يمنعانهم من التفريط في الصراحة؛ إذ لا يكون مع الإخلاص والغيرة جُبْنٌ ولا طمع، ولا إيثار المنافع الشخصية على المنافع العامة.

والرويةُ والدهاءُ يمنعانهم من الإفراط في الصراحة؛ إذ يرون ببصائرهم المضيئة، وألمعيتهم المهذبةِ المواطنَ التي يكون السكوتُ عن شيء، أو استعمال الكنايات الخفية أفضلَ من التصريح به.

ويظهر فضل الصراحة جلياً متى وقع بجانب الكلام المبهم أو المَطْلي بشيء من المواربة؛ كما يروى في قصة عمر بن هبيرة والي العراق في عهد يزيد بن عبدالملك؛ إذ استدعى الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، والشعبي، وقال لهم: «إن يزيد خليفة الله أخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون، فيكتب لي بالأمر من أمره، فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟».

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية.

فأقبل ابن هبيرة على الحسن البصري، وقال له: «ما تقول يا حسن؟».

فقال: «يا ابن هبيرة! خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، حتى قال له: فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فموقف الحسن البصري في هذه القصة ظاهر الفضل، وبمقارنته بموقف ابن سيرين والشعبي ازداد فضله ظهوراً.

وإذا اقتضى الحال الصراحة فإن لها أساليب تختلف باختلاف أحوال المخاطبين، فمن حسن بيان المتكلم أن يراعيها، ويصوغ عبارته في الأسلوب المناسب؛ حتى تأتي الصراحة بثمراتها الطيبة.

والخلاصة أن الطريق المعتدل للصراحة، وهو الذي يعد فضيلة أن يجهر الإنسان بما له من آراء وعواطف؛ حيث يكون في الجهر مصلحة، ولا يتوصل إليها بطريق التعريض أو الكنايات الخفية، وأن الصراحة -في أصلها- خلق نبيل مرتبط بمنظومة الأخلاق التي تتلاقى لتتعاون على البر والتقوى؛ فلا غنى للصريح عن الذوق، والعقل، ومراعاة المصالح و المفاسد.

## العظيم العاقل

العظمة الحقة، وكمال العقل هبة يهبها الله -عز وجل- لأفراد من الناس؛ فيكونون مهيئين للقيام بجلائل الأعمال.

كما أن تلك الصفات قد تكتسب، أو يكتسب شيء من مقوماتها، خصوصاً إذا كان لدى الإنسان استعداد فطري، ثم نمَّاه بالعلم، والعمل، ومطالعة سير الكُمَّل.

ومما يعين على ذلك -أيضاً- النظر في العلامات التي تشير إلى ذلك، وتجعل من يتمثلها يوصف بأنه عظيم عاقل.

وفيما يلي ذكر لشيء من ذلك؛ فعلامات العظيم العاقل كثيرة جداً، وكُتُب السير والتراجم حافلة بذكر تلك العلامات.

ومما يحضر في هذا الشأن من تلك العلامات: تقوى الله -عز وجل- وصدق الحديث، وترك ما لا يعني.

ومنها: حسن السمت، وطول الصمت، وتدبُّر العواقب.

ومنها: حبُّ العلم، وحسن الحلم، وصحة الجواب، وكثرة الصواب.

ومنها: التغاضي، والتغافل، والصفح، والعفو، ومخالفة الهوى.

والعظيم العاقل إذا أبغض أنصف، وإذا أحبَّ ألطف.

وهو هادئٌ ثابتٌ بصيرٌ لا تبطره النعمة، ولا تقنطه المصيبة، ولا يكسره الإخفاق، ولا يتطوَّس به النَّصْر، ولا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة.

وهو نزيهٌ، متواضعٌ لا يغُرُّه المجد العاجل، ولا يَفْتِنُه التنافس في سبيل الظهور.

والعظيم العاقل يستطيع أن يذيب شهوته في مصلحة أمته، ويحتفظ بتماسكه وقواه لساعات الشدائد، وهو يعرف متى يُقْدِم، ومتى يُحْجِم؛ فيحسن الوقوف في مواقف الشجاعة والإقدام، كما يحسن الوقوف في مواقف الحيطة والحذر.

والعظيم العاقل يؤْثِر الصراحة المقرونة باللطف واللباقة، وينأى بنفسه عن الملق والرياء، والمواربة، والصفاقة، وتراه يَزِنُ عقولَ مَنْ يلاقونه، فيتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق، وتراه يعرف إمكاناته، وطاقاته، وموقعه؛ فلا يتخطى حدوده، ولا يُقَصِّر فيما يجب عليه.

والعظيم العاقل ذو نفسٍ كبيرة؛ فإذا تَوجَّه نحو المطمح مَرَّ بالصغائر؛ فلا تعوقه عن مواصلة السير حتى يبلغ الغاية.

وقد تقضي على العظيم العاقل ضرورةٌ من ضرورات الحياة آلاماً، وأحزاناً؛ فيودعها في قرارة نفسه، ثم يغلق دونها باباً من الصمت والكتمان، ثم يصعد إلى الناس باشَّ الوجه، باسم الثغر، متطلقاً متهللاً كأنه لا يحمل بين جنبيه هماً ولا كمداً.

والعظيم العاقل لا يستسلم لعوارضه النفسية؛ فيجعلها تَحْكُم علاقاته، وتصرفاته، بل يحافظ على روابطه الاجتماعية، فلا يُفَرِّط في معارفه، وأصدقائه، ولا يقطع ما أبرمه من ذلك إلا في أضيق الحدود، ولأسباب ظاهرة بيِّنة معقولة لا خفية موهومة محتملة.

والعظيم العاقل لا يشمت بأحد، ولا يفرح بمصائب الآخرين، بل يفرح بالنجاح والخير سواء تمَّ على يده أو على يد أحد من إخوانه، وتراه يأسى للإخفاق سواء صدر منه أو من أحد إخوانه.

والعظيم العاقل به يُستكثر القليل من معروف الناس، ويستقل الكثير من معروفه.

وهو هيِّن ليِّن، متواضع في سيرته، بعيد عن وسائل الخلابة والاسترهاب، يستمد بساطته من عظمته، وعَظَمَته من بساطته.

**متبذلٌ في الحي وهو مُبَجَّل  متواضع في القوم وهو معظم**

ومقياس اتسام العظيم بسمات العظمة يكون بمقياس غُنْيَتِه عن مخايل التعاظم الزائفة.

كما أنه بمقدار خلوه من تلك السمات الحَقَّة يقترب من الاحتياج إلى شيء من تلك المخايل -كما يقول ابن عاشور- ويقول ابن الرومي في أحد ممدوحيه مشيراً إلى هذا المعنى:

**وما الحليُ إلا حيلةٌ من نقيصة تُتَمِّمُ من حسنٍ إذا الحسن قصّرا**

**وأما إذا كان الجمال موفَّراً كحسنك لم يَحْتجْ إلى أن يزوَّرا**

والعظيم العاقل يمتلك روح الأبوة؛ فتراه يَحْدِبُ على إخوانه، وأصدقائه، ومعارفه، وزملائه، ويسعى في مصالحهم دون أن يُحَمِّلهم شيئاً من همومه.

والعظيم العاقل لا ينتظر جزاءًا ولا شكوراً من أحد، وإن شكره أحد أو كافئه كان شعوره بمعنى الجزاء أو الشكور أكثر من فرحه بما يُقَدَّم له من جزاء أو شكور.

والعظيم العاقل يتعامل مع الحقائق، ويتباعد عن الأوهام الكاذبة، والظنون السيئة، والتحليلات الخاطئة؛ فعلاقاته، وأحكامه مبنية على أساس متين لا على كثيب مهيل.

والعظيم العاقل لا يتكلف في معاملته، ولا تخشى بوائقه، أو سوء ظنونه.

والعظيم العاقل يحفظ الغيبة والحضور، ويحسن الحديث والإصغاء، ولا يخوض في كلِّ مجال، ولا يبدي رأيه في كل مسألة.

والعظيم العاقل حريص على جمع الكلمة، بعيد عن كل ما يكدر الصَّفْو، ويُفَرِّق الشَّمْل.

والعظيم العاقل يمتلك روح المبادرة؛ فتراه يبادر إلى الإصلاح، ويسعى إلى تقديم النافع من الاقتراحات والحلول؛ فيكون سبباً لإسعاد نفسه وقومه.

وهو الذي يفوق قومه في الخير، ويُفْزَع إليه عند الشدائد والنوائب.

والعظيم العاقل واسع الصدر بالنقد، متقبلٌ ما يَرِدُ إليه من ملحوظات، أو تعقيبات.

والعظيم العاقل لا يغمط الناس حقوقهم، ولا تحدثُه نفسه أن يسرق شيئاً من جهودهم أو أعمالهم، ولا يستنكف من بذل الثناء لمستحقه، ولا ينأى عن الاعتراف للمحسن.

والعظيم العاقل كهفٌ للمظلومين، أمان للخائفين، ربيع للمنتجعين؛ كما قال المغيرة بن حبناء في مدح المهلب بن أبي صفرة:

**أمنٌ لخائفهم فيض لسائلهم ... ينتاب نائله البادون والحضرُ**

والعظيم العاقل لا يقلّل من قيمته جهلُ الناس، أو جحودهم شيئاً من فضله؛ فهو عظيم بأعماله، وبقدره، وبخلقه، وجوهره؛ فهو مثل

الدُّرِّ الذي قيمته ونفاسته فيه لا فيما يقال عنه؛ ففضل الشيء كامنٌ فيه ولو عُزِي إلى غيره.

كالعطر يعبق في المجالس نشرُه — والفضل منسوبٌ إلى المتعطِّر

هذا وإن للشعراء لَفَتاتٍ ووقفاتٍ في وصف العظماء العقلاء.

فهذا أبو الطيب يصف العظيم العاقل بأنه شجاع يقرن شجاعته بالحكمة ، فيقول :

وكلُّ شجاعة في المرء تُغني — ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وهذا شوقي يقول في نحو ذلك :

إن الشجاعة في الرجال كثيرة — ورايت شجعان العقول قليلا

ويصفون العظيم العاقل بأنه يقوم بمعضلات الأمور ، ويتصدَّى لحلِّ المشكلات بارتياحٍ ، ويَقَظَة ، وثبات على نحو قول أبي تمام :

لا تَدْعُوَنْ نوحَ بنَ عمروٍ دعوةً — للخطب إلا أن يكون جليلا
يقظٌ إذا ما المشكلاتُ عَرَوْنَه — الفيتَه المُتَبَسِّمَ البهلولا
ثَبْتُ المقامِ يرى القبيلةَ واحداً — ويُرى فيحسبُه القبيلُ قبيلا

والعظيم العاقل عندهم سريع النجدة ، منجحٌ للطَّلْبة ، كما قال بشار :

إذا أيقظتك حروب العدى — فَنَبِّهْ لها عمراً ثم نَمْ

ويصفون مجالس العظماء بأنها مجالس فضل وعقل على نحو قول زهير:

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهها ... وأنديةٌ ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم الفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يَشْفى بأحلامها الجهلُ

وقول الآخر:

لا يُقَال الفُحش في ناديهمُ ... لا ولا يَبخَلُ منهم من يُسَلْ

وكما يقول أحدهم في مجالسة عاقل عظيم:

وكنت جليسَ قعقاعِ بنِ شَور ... ولا يشقى بقعقاع جليسُ
ضحوك السن إن نطقوا بخير ... وعند الشر مطراقٌ عبوسُ

ويصفون العظماء بأنهم يُعْدُون جلساءهم بالمكارم على نحو قول أبي تمام:

ولو لم يزِعْني عنك غيرك وازع ... لأعديتني بالحلم إن العلا تعدي

أو قول بشار:

لست بكفي كَفّه أبتغي الغنى ... ولم أدرِ ان الجود من كفّه يعدي
فلا انا منه ما أفاد ذوو الغنى ... افدتُ واعداني فأتلفت ما عندي

ويصفون العاقل بأصالة الرأي، وتدبُّر العواقب على نحو قول أحدهم:

عليم بما خلف العواقب إن سرت ... بديهته فضلاً بما في العواقب
وصيقلُ آراءٍ يبيت يَكُدُّها ... ويشحذها شَحْذَ المُدَى للنوائب

وإذا رثوا عظيماً عاقلاً له وزنه في ضبط الأمور ذكروا عظم الفادحة في فقده على نحو قول المهلهل في أخيه كليب :

**أودى الخيار من المعاشر كلهم — واسْتَبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ**
**وتنازعوا في كلِّ أمرٍ عظيمة — لو كنت حاضرهم بها لم ينبسوا**

وكما قال الآخر :

**هذا أبو القاسم في نعشه — قوموا انظروا كيف تزول الحبالْ**

وكما قال أبو تمام في محمد بن حميد الطوسي :

**كأن بني نبهان يوم وفاته — نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدرُ**

ويقولون في ذمِّ التزهيد بالأكابر والعظماء :

**فكبيرٌ ألا يصان كبيرٌ — وعظيمٌ أن يُنبذَ العظماءُ**

أو يقولون :

**لا تَضَعْ مِنْ عظيمِ قدرٍ وإن كُنْـ — ـتَ مشاراً إليه بالتعظيم**
**فالكبير العظيم يصغر قدراً — بالتَّجَرِّي على الكبير العظيم**

وإذا أثنى قائلهم على كبير بأنه لا يغفل صغار الأمور ولا كبارها أنشد :

**لولا ملاحظةُ الكبيرِ صغيرَه — ما كان يُعرف في الأنام كبيرُ**

وإذا أثنوا على عظيم جامعٍ لمكارم الأخلاق أنشدوا :

**فتىً جمع العلياءَ علماً وعِفَّةً — وبأساً وجوداً لا يُفيق فُواقا**
**كما جمع التفاحُ حسناً ونضرة — ورائحةً محبوبةً ومذاقا**

وقال أبو الطيب فيمن وصف عظيم عاقلٍ جوادٍ:

كالبدر من حيث التفتَّ رأيتَه ... يُهْدي إلى عينيك نوراً ثاقبا
كالبحر يقذف للقريب جواهراً ... جوداً ويبعث للبعيد سحائبا
كالشمس في كَبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وقال الفرزدق في العظيم الذي ينخدع تكرماً وإغضاءًا:

استمطروا من قريش كل منخدع ... إن الكريم إذا خادعته انخدعا

وهذا أحدهم يثني على عظيمٍ متواضعٍ ذي سلطان فيقول:

فتىً زاده السلطان في الخِلِّ رغبةً ... إذا غيَّر السلطانُ كلَّ خليل

وهذا أحدهم يثني على عظيم عُزل من منصبه فيقول:

لِيهنَك إن أصبحت مجتمع الشملِ ... وراعي المعالي والمحامي عن المجد
وإنك صنت الأمر فيما وَليْتَه ... وفرقت ما بين الغواية والرُّشْدِ
فلا يحسبِ الأعداءُ عزلَك مغنماً ... فإنَّ إلى الإصدار ما غايةُ الورد
وما كنت إلا السيف جُرِّد للوغى ... وأحمد فيه ثم رُدَّ إلى الغِمْدِ

فهذه شذرات عن علامات العظيم العاقل، وهي -في الوقت نفسه- ترشد من يريد الاتصاف بتلك الصفات إلى أن يأخذ بها، أو يأطر نفسه على ما يستطيع منها.

## ماذا تريد؟

سؤال واضح صريح مباشر، لو وجَّهه كلٌّ واحد من الناس إلى نفسه في أيِّ شأن من شؤونه لتغيرت أموره، ولتبدلت أحوالُه، ولَوُئِدَتْ عداوات، ولاختلفت مواقف.

فالمشكلة تكمن في أن كثيرين لا يعلمون ماذا يريدون؛ فترى الواحد من هؤلاء يُقْدِمُ على عمل من الأعمال دون أن ينظر إلى فائدته وعاقبته.

وتراه يدخل في جدال، أو معركة مع أحد من الناس دون أن يكون له هدف من وراء ذلك.

ولو أن الواحد من هؤلاء سأل نفسه ما فائدتي من تبني ذلك الموقف؟ وما الذي سأجنيه من جراء الدخول في تلك القضية؟ وماذا سأربح من جراء معاداة فلان أو فلان؟ وماذا سأخسر إذا تركتُ ذلك الأمرَ أو تنازلت عن ذلك الموقف؟.

أسئلة تحتاج إلى تأمل فيها، وقياسٍ لأشباهها عليها؛ كي يصل الإنسان إلى نتائج مُرْضِيةٍ تحدد مدى إقدامه، أو إحجامه، ومدى ربحه من خسارته.

ولو أخذ ذلك مأخذه من التفكير لحصل خيرٌ كثير، ولاندفع شرٌّ مستطير.

## إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ

الحديث عن الوالدين والإحسان إليهما، وصحبتهما بالمعروف يبدأ ولا يكاد ينتهي؛ لأنه حديثٌ متشعبٌ طويلٌ ذو شجون، وسيدور ههنا حول آيتين من آيات الحكمة في سورة الإسراء، والآية هي قوله -تعالى-: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤)﴾.

والذي يلاحظ أن هاتين الآيتين اشتملتا على مزيد بيان لحقوق الوالدين لم يكن في بعض الآيات الأخرى الآمرة بالبر، كآيةِ الحقوق العشرة من سورة النساء، وأولِ آيةٍ من آيات الوصايا العشر في الأنعام، حيث أمرتا بالإحسان إلى الوالدين فحسب.

وكذلك آيتا سورة لقمان حيث أوصتا بالوالدين، وبالأم، وذكر حملها، وبمصاحبة الوالدين بالمعروف.

وقريب منها الآيات التي تضمنت الوصية بالوالدين في سورة الأحقاف.

فآيتا الإسراء زادتا في التفصيل، والإيصاء بالبر حالَ كِبرَ الوالدين، فجاء الأمرُ فيهما بالإحسان، والتحذيرِ من التأفف والنهر، كما جاء الأمرُ بالقولِ الكريم، وخفض الجناح، والدعاءِ للوالدين.

ولا ريب أن حال الكبر حالٌ تقتضي مزيداً من الرعاية، والعناية، والمداراة؛ إذ الوالد ـأباً أو أماًـ قد يستغني عن أولاده حال شبابه، وصحته، وقوته، ونشاطه؛ فيكون له من ذلك ما يجعله يقوم بحاجاته، ويبحث عما يشرح صدره، بخلاف ما إذا كبر في السن، ووهن منه العظم، واشتعل الرأس شيباً، وبدأت صحته في النزول، وكثرت مراجعاته للأطباء، وصارت ذاكرتُه تتضاءل، وبدأ سمعه وبصره في الضعف أو التلاشي على نحو قول الأول:

**من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدَّتَهُ وخانـه ثقتـاهُ: السـمعُ والبـصرُ**

فينبغي ـ والحالة هذه ـ لمن يريد سعادة الدارين من الأولاد أن يراعي تلك الحال، وأن يقدم قصارى ما يستطيع لوالديه من أنواع البر؛ لأن العمر قصير، والفرصة لا تتكرر، والأجر مضاعف، والعاقبة حميدة في العاجل والآجل.

فمما يُذكَّر به الولد ـ ابناً أو بنتاً ـ أن يراعي حال كِبَرِ السنِّ للوالد، وما يصحبه من تكدر مزاج، وقلة نوم، وكثرة فراغ، وفقدانِ كثيرٍ من الأحبة والأصحاب الذين يأنس بهم، ويأنسون به.

وربما صحب ذلك فقرٌ، وقلةُ ذاتِ يدٍ، وربما عاش الوالد معزولاً عن العالم؛ حيث يريد أن يتكلم، ويعبر عما في داخله، ويرغب فيمن يجاذبه أطراف الحديث، فلا يجده.

وإذا اجتمع إلى ذلك أمراض يُحْتاج معها إلى مراجعات كان ذلك ألماً على ألم؛ فينبغي للولد مراعاةُ تلك الحال، والحرص الشديد على إسعاد والده، وإدخال السرور عليه، وملاطفته بالحديث، بل واستطعامه إياه وإن كان الحديث معلوماً مكروراً.

كما يحسن به مراعاةُ الوالد في البِرِّ المالي، وأن يستقطع جزءًا من ماله بحسب حاله؛ فَيُقدِّمَهُ له كلَّ شهر، ويكون له حدٌّ أدنى لا يقل عنه بحال، بل يكون قابلاً للزيادة، وألا يتواكل الإخوة بعضهم على بعض في ذلك.

ثم إن من الإحسان في إيثار الوالد بجانب من المال أن يُنَوِّعَ له في فئات المال، فتكون مثلاً من فئات الريال، والخمسة، والعشرة، والخمسين، والمائة وهكذا.

وإذا كانت تلك الأوراق النقدية جديدة فحسن وذلك من تمام المعروف:

**وما كل هاو للجميل بفاعل ولا كل فعال له بمتمم**

وفيه مزيد من الفائدة، وهي أن الأوراق النقدية الجديدة لم تتداولها الأيدي؛ فتكون أبعد من انتقال العدوى والأمراض للوالد، كما أن لكل جديد لذة.

وربما يكون الأولى أن يَفْتَحَ الولدُ حساباً لوالده، فَيُوْدِعَ فيه كلَّ شهرٍ مبلغاً معيناً.

ومن البر في هذه السياق أن الحال في بعض الأحيان تقتضي أن يكون الوالدان أو أحدُهما في منزل وبقيةُ الأولاد في منازل أخرى، فمن البر ههنا ألا يترك الوالد وحيداً في المنزل خصوصاً إذا لم يكن قادراً على القيام بنفسه.

ومن البر في ذلك أن يكون هناك وقت يجتمع فيه الإخوة بحسب ما يتيسر لهم مع الوالدين، وأن يُعْمَر ذلك الاجتماع -قدر المستطاع- بالأنس، والبشر، والأحاديث الجميلة، وأن ينأى عن إثارة المشكلات بين الأولاد.

ومن البر في تلك السن أن يُعطى كلٌّ من الوالدين هاتفا جوالاً خاصاً به إذا لم يكن عنده؛ لأن الهاتف العادي قد لا يسعف في كثير من الأحيان؛ إذ غالباً ما يكون عاماً؛ فمن الجميل أن تهدي لوالدك جوالاً، وألا تستشيره في ذلك؛ لأن أغلب الوالدين يرفض؛ إما لحيائه وعزة نفسه، أو لأن النفوس لا تألف الجديد بسهولة، أو قد يكون مُسْتَصْعِباً استعمالَه؛ فإذا أحضرته له، وشرحت له طريقة الاتصال والرد بأيسر ما يكون ـ كان ذلك داعياً له أن يقبله.

ويحسن ـأيضاًـ في هذا الصدد أن تجعل هذا الهاتفَ باسمك، وتقومَ بتسديد رسومه عن الوالد حسب قدرتك واستطاعتك، أو يكون ذلك بالاشتراك مع الإخوة.

ومن البر الذي يحتاجه الوالد في حال كبره، ويحسن بالولد مراعاته القيام على علاج الوالد؛ خصوصاً إذا كان لديه أمراض مزمنة كالسكر، والضغط؛ فيحسن بالولد أن يتعلم كيفية التعامل مع هذه الأمراض، وأن يتابع حالة والده في ذلك.

وإذا كان المرض يحتاج إلى مراجعة مستشفى كبعض حال الغسيل الكُلوي ـ فإنه يحسن بالولد أن يعرف مواعيدَ والده؛ فلا يضطر والدَه إلى أن يتصل به لتذكيره، أو أمْرِه بالمجيء؛ ليوصله، بل على الولد أن

يبادر من تلقاء نفسه؛ لأن الوالد قد يستحيي، وقد يشعر بشيء من الذل خصوصاً إذا تردد الولد في المجيء، أو تأخر، أو سوَّف، أو أبدى قلة رغبة؛ فذلك مما يكدر الوالد، وربما يجعله ينصرف عن طلب ذلك من ولده، بخلاف ما إذا بادر الولد في المجيء، وأقبل على والده بكل سرور وارتياح، وبشاشة؛ ففي هذا مزيد برٍّ وإحسان، وإسعادٍ للوالد.

ومن البر الجميل في حال الكبر البرُّ بالهدية؛ سواء كان الوالد فقيراً أو غنياً؛ فالهدية تفرح النفس، وتدخل السرور على القلب، وبعض الأولاد لا يخطر بباله ذلك المعنى؛ فتمضي السنون، والمواسم، بل والأعمار ببعض الأولاد دون أن يُفَكِّر في تقديم هدية لوالده.

وربما سافر الولد بعيداً أو كان في مكان بعيد عن والديه، فإذا همَّ بالقدوم إليهما لم يفكر بتقديم أيِّ شيءٍ لهما.

وهذا نوعُ جفاء وتقصير وغفلة؛ فيحسن بالولد أن يقدم لوالديه الهدايا بين الفينة والأخرى سواء في الأعياد، أو المناسبات، أو حال القدوم من سفر، أو حال الشعور بتكدر خاطر الوالد.

وكل ذلك بحسب الحال، والاستطاعة؛ فالهدية بمعناها ولو كانت عوداً من أراك، ولكن لا ينبغي لذي المال والمكانة أن تكون هديته كهدية من هو أقلُّ منه في ذلك.

ويحسن في هذا الشأن وفي بعض الأحيان أن يزيد الولد في الهدية؛ فإذا اختار لوالده قماشاً، أو طيباً، أو حذاءاً، أو أي شيء مما يناسب حال الوالد زاد في ذلك، وقال لوالده: هذه لك، وهذا لمن تحب من إخوانك، أو أقاربك، أو أصدقائك؛ فتكون الفرحة للوالد مضاعفة.

و لا ريب أن ذلك نوعٌ شريفٌ من أنواع البر الحاضر في أذهان مَنْ ذُلِّلت لهم سُبُلُ المكارمِ تذليلاً.

وأعرف من الناس من إذا سافر لم يرجع من سفره إلا بهدايا لوالديه على النحو الذي ذكر، ويقول أحدهم: إنني إذا سافرت ولم أحضر لوالدتي هدايا أكاد أتوارى خجلاً من نفسي ومنها، وإذا أحضرت الهدايا لها أتمنى أن تطوى لي الأرضُ؛ لأصلَ إليها، وأقدمَ لها ما أحضرته.

ومن جميل البر أن لا تحققَ مع والدك في ما تعطيه خصوصاً إذا كان عاقلاً رشيداً، فلا يَحْسُنَ أن تسأله: ماذا أنفقت منه، ولماذا أعطيت فلاناً؟ أو أن تقول له: أمسك على المال الذي أعطيك إياه، أو أن تحذره من إعطاء الأطفال والمساكين؛ فهذه حال مَنْ لا يعرف لذة العطاء، ولم يعلم أن آخر ما توصلت إليه فلسفة الأخلاق أن اللذة الحقيقة إنما هي في العطاء دون الأخذ.

فكرام الناس يتمتعون بالعطاء دون الأخذ، فلا يحسن بالولد أن يحرم والديه من هذه اللذة.

ومن جميل البر بالوالد حال الكبر: تحمل جفوته، وعتابه، وأنينه، وشكواه، وكثرة ترداده للقصص.

ومن ذلك تحمل بعض أصحابه الذين يأنس به ويحبهم، وإن كانوا لا يعجبون الولد.

ومن ذلك: السفر بالوالد، والذهاب به إلى من يريد من أصحابه الأوائل.

ومن ذلك اصطحاب الأم إذا أرادت أن تتصدق على بعض صويحباتها، أو بعض الفقراء؛ فإن في ذلك لذة، وفرحة، ونشاطاً، وإخراجاً لها من وَحْدتها.

ومن جميل البر في حال الكبر للوالد أن يعرف كلٌّ واحدٍ من الأولاد ما يناسبه من بر والديه؛ إذ الأولاد يتفاوتون في ذلك؛ فمنهم من يحب ممازحة والديه، وهما يرغبان في ذلك، فيحسن به أن يحتسب هذا النوع من البر الذي يليق بحاله.

وبعضهم قد يكون ذا تجارة تقتضي أن يكون بعيداً عن والديه في أغلب الأحيان، أو قد يكون ذا عمل خارج المكان الذي يقطن فيه والده؛ فيكون بره بالاتصال بوالديه، وتشجيع إخوانه القريبين من والديه على ما يقومون به من بر الوالدين.

وبعض الأولاد قد يكون قليل ذات اليد، ولا يستطيع البر إلا بالخدمة؛ فذلك نوع من البر.

وبعضهم قد يكون ذا مالٍ وفيْر؛ فيليق به من البر ما لا يليق بغيره من ذوي الفقر والفاقة؛ فالصورة تتكامل، والواجب يقضى إذا تعاونوا في البر.

على أن مِنَ الناس مَنْ قد يفتح عليه في أبواب كثيرة من أبواب البر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن صور البر الجميلة الخفية التي يراعيها الكرام من الأولاد أن بعض الوالدين في حال الكبر قد يأنس بالأمر أو الجلوس إلى بعض أبنائه أو بناته؛ إما لأنه لا يستحيي منه، أو لأنه يخجل من أمر البقية، أو أنه اعتاد على ذلك الولد، أو لأن ذلك الولد يعرف إشارات والده أكثر من غيره، أو نحو ذلك من الاعتبارات الأخرى؛ فإذا كان الأولاد على درجة من العقل، والبر، والصلاح قَدَروا هذا

الأمر قَدْرَهُ، ولم يَعُدُّوا ذلك تفرقةً بين الأولاد، أو ميلاً لأحدهم دونهم، وإنما قالوا بلسان الحال أو المقال: كلُّ ما يسعد والدينا هو سعادة لنا، ولم يشعروا بحسد أو غضاضة تجاه الذي يأنس الوالدان بخدمته لهما، بل يَعدُّون ذلك تكليفاً له، وإراحة لهم، فيقومون بشكره، وتشجيعه، ومَدِّه بالمال إن كان محتاجاً.

ومن صور البر الخفية الجميلة شيوع روح الإيثار من قبل الأولاد تجاه برهم بوالديهم؛ فيتنافسوا في البر تنافساً شريفاً، ويتعاونوا في ذلك تعاوناً محموداً يفي بالمطلوب، ويرفع الحرج دون منة أو تباطؤ، أو لومٍ للمقصر، بل يكون العذر قائماً بينهم في ذلك.

ومن الصور العالية التي لا تتأتَّى لكل أحد مراعاةُ الوالد إذا كان له أكثر من زوجة وذلك بإصلاح الحال، والحرص الشديد على البعد عن كل ما يثير العداوة، بل والحرص على مزيد من الرابطة، والقربى؛ فذلك من أعظم ما يسعد الأب، وإذا سعد الأب عاد أثر تلك السعادة على أمهات الأولاد جميعاً، بخلاف ما إذا تكدر فإنهم جميعاً ربما يصطلون بتلك النار.

ومما يدخل في قبيل ذلك أن يكون بعض الأولاد صغيراً ويحتاج إلى رعاية أو منحرفاً عن سواء السبيل ويحتاج إلى تقويمٍ لعوجه، أو أن يكون راغباً في الزواج وليس لديه ما يكفيه، أو أن يكون مريضاً ويحتاج إلى علاج ومتابعة وهكذا.

ولا ريب أن تلك الأحوال وما شاكلها تكدر صفو الوالد، خصوصاً في حال كبره، وقلة حيلته في التعامل معها، وإيجاد الحلول لها؛ فمن البرِّ به ـ والحالة هذه ـ أن يقوم المستطيع من الأولاد بذلك الواجب، ويتولى ـ قدر استطاعته ـ سد تلك الحاجة؛ فلا ريب أن ذلك مما يشرح صدر الوالد، ويجعل فرحته مضاعفة؛ حيث يفرح ببر ذلك الولد المحسن، ويفرح بصلاح أحوال أولئك الذين يحتاجون للملاحظة، والرعاية.

ومن البر في ذلك الشأن أن إذا كان الوالد كريماً مضيافاً، ثم كبر في السن، وصار عاجزاً عن القيام بشأن أضيافه ـ ألا يقطع الأولاد تلك العادة عن أبيهم، وذلك بالقيام بإعداد الطعام، وتهيئة المجلس، وحسن الاستقبال للقادمين؛ بحيث يكون الوالد لا شأن له إلا التبسط للأضياف، ومؤانستهم بالحديث؛ فتلك ـ كسابقتها ـ

فرحة مضاعفة؛ فرحة بالأضياف، وفرحة بالأولاد الذين يراهم على تلك الحالة التي تسر الكرام من الناس.

أما من كان عاطلاً عن المروءات فلا تكاد تحس له وجبةً، ولا تسمع له ركزاً.

ومن ذلك أن الوالد في حال كبره قد يحن إلى مرابعه الأولى بين الفينة والأخرى؛ وقد لا يتسنى له الذهاب إليها؛ فقد تكون بعيدة عنه، أو قد لا يرغب في تكليف أحد أولاده بذلك؛ فمن البر أن يبادر الولد إلى تلبية هذه الرغبة وتعاهد والده فيها.

**وحبَّب أوطانَ الرجال إليهمُ … مآربُ قضَّاها الشباب هنالِكا**

**إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ … عهودَ الصبا فيها فحنوا لِذلكا**

هذا وقد أرانا العيان ـ ولله الحمد ـ أولاداً أبراراً جعلوا من برهم لوالديهم ذريعة للسعادة، والهناء، والعيش بطمأنينة وسلام.

فهذا شيء مما أوحت به تلك الآية الكريمة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾.

## فلسفة الدمع

جرى حديث مع أحد الفاضلين حول ماهية الدمع، وباعثه، واختلاف الناس في جمودهم وجودهم فيه، وكيف تجود عين فلان في الدمع، وتجمد عينُ آخرَ مع أن الموقف واحد؟

وكيف تجود عين الواحد في موقف، وتجمد في موقف آخر؟ وما المحمود في ذلك؟ وما المذموم منه؟ إلى غير ذلك مما يدور في شأن الدمع؛ فكان ذلك باعثاً للحديث عن الدمع، وعن نظرة الناس إليه، واختلافهم في شأنه، وأحوالهم، وغرائبهم فيه.

فالدمع هو الماء الذي يتحدر من العين من جراء موقف، أو حديث، أو تذكُّر، أو سماع، أو ما جرى مجرى ذلك.

ولقد راعى الشارع الحكيم تلك الحال؛ فكان للقرآن الكريم حديث حول فيض الأعين من الدمع، وعن سبب ذلك؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ المائدة: ٨٣ .

وكما في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ التوبة: ٩٢ .

كما أن السيرة النبوية حافلة بذلك، ويذكر الموقف الذي جرى فيه الدمع على نحو ما سيمر في غضون هذا الحديث.

وأما نظرة الحكماء، والشعراء، وعموم الناس للدمع فمختلفة من جهة باعثه، ووصفه، وكثرته، وقلته، ولهم في ذلك مذاهب وغرائب.

فامرؤ القيس ـ وهو من أقدم الشعراء، وأدقهم في الوصف ـ له وقفات مع الدمع، ويكاد يكون أحسن مَنْ وصف الدمع في حال قلته وكثرته، وذلك في قوله:

**أَمِنْ ذِكْر نبهانيةٍ حَلَّ أهلُها بجزع الملا عيناك تبتدران**

**فَدَمْعُهما سُحٌّ وسَكْبٌ ودِيمةٌ ورشٌّ وتَوْكافٌ وتنهملان**

وأما ذو الرمة فيرى أن في انحدار الدمع راحةً للمحزون، وسلوةً للمكروب حيث يقول:

**خليليَّ عوجا من صدور الرواحل بجمهور حزوى فابكيا في المنازل**

**لعل انحدارَ الدمعِ يَعْقِبُ راحةً من الوجد او يشفي نجيَّ البلابل**

وقبله قالت الخنساء:

إن البكاء هو الشفا ء من الجوى، ومن الجوانح

وقد أفاد ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من تجربة ذي الرمة؛ فقد جاء في محاضرات الأصبهاني ما نصه: «قال ابن عباس: كنت إذا حَرِجت أمتنع من البكاء، حتى سمعت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجيَّ البلابل

فصرت اشتفي من الوجد به» اهـ.

وجاء في الكامل للمبرد أن أبا بكر بن عياش قال: «نَزَلَتْ بي مصيبةٌ، فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجيَّ البلابل

فخلوت، فبكيت، فسلوت».

وجاء نحوٌ من هذا الخبر في العقد الفريد لابن عبد ربه.

وفي خاص الخاص للثعالبي زيادةُ قولِ بكر بن عياش: «رحم الله ذا الرمة؛ فما كان أعرفه بدواء الحزن».

وجاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ما لفظه: «وقال امرؤ القيس:

وإن شفائي عبرة مُهَرَاقَةٌ فهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الأنباري: قال: حدثنا محمد بن المرزبان قال: حدثنا حمادة بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: حدثنا محمد بن كناسة، قال: قال: أبو بكر بن عياش: كنت وأنا شاب إذا أصابتني مصيبة لا أبكي؛ فيحترق جوفي، فرأيت أعرابياً بالكناس على ناقة له ـ والناس حوله ـ وهو ينشد:

**خليلي عوجا من صدور الرواحل ... ببُرْقَـةَ حزوى فابكيا في المنازل**

**لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي نجي البلابل**

فسألت عن الأعرابي؟ فقيل: هو ذو الرمة؛ فكنت بعد ذلك إذا أصابتني مصيبة بكيت فاشتفيت، فقلت: قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره!» اهـ.

وجاء في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ما يأتي:

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، قال: أنشد الحسن بن رجاء عن المبرد يوماً بيت ذي الرمة:

**لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي نجي البلابل**

وقال له: من قال في مثله؟ فقال: قد مَلُحَ الحسن بن وهب في قوله:

**ابك فما أكثر نفع البكا ... والحب إشفاق وتعليل**

افـزع إليـه في ازدحـام الجـوى ففيـــــه مـــــسلاة وتـــــسهيل
وهـــــو إذا أنـــــت تأملتـــــه حــزن علــى الخـدين محلــول

أما أبو فراس الحمداني فله مذهب آخر في الدمع؛ إذ هو مُتَصَبِّرٌ مُتجلِّدٌ عصيُّ الدمع، على نحو قوله:

أراك عصيَّ الدمع شيمتُك الصبرُ أمـا للـهوى نهـيٌ عليـك ولا أمـر

وقوله لما كان في الأسر عند الروم، وقد سمع نوح حمامة:

أقـول وقـد ناحـت بقربـي حمامـة أيــا جارتــا لــو تعلمــين بحــالي
معاذَ الهوى مـا ذقـت طارقـةَ النـوى ولا خطـــرت منـــك الهمـــوم ببـــالِ
أيـضحك مأسـور وتبكـي طليقـةٌ ويـسكت محــزون وينــدب ســالِ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ولكـــن دمعـــيْ في الحـــوادث غـــالِ

أما أبو الطيب المتنبي فهو بين بين على نحو قوله:

الحـزن يقلـق والتجمُّـل يـردع والــدمع بينهمــا عــصيٌّ طيِّــع
يتنازعـان دمـوعَ عـينِ مُـسهَّدٍ هــذا يجــيء بهــا وهــذا يرجــع

وله وقفات مع الدمع يطول ذكرها، وتحتاج إلى مزيد تحرير وتحليل.

ثم إن الدموع تختلف شرفاً وحِطةً؛ فهناك دموع فاضلة شريفة، وهناك دموع هي إلى السماجة أقرب؛ فأشرف الدموع ما فاضت عن

خشية الله، والشوق إلى لقائه، وكانت بلا تكلف، ولا رياء كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: «**رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

ومن ذلك ما كان عند سماع تلاوة القرآن: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾.

وقد كان ابن مسعود ﷺ يقرأ القرآن على النبي ﷺ حتى وصل إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ فقال: «**حسبك**»، يقول ابن مسعود: فالتفت فإذا عيناه تذرفان».

ولأبي بكر وعمر وسائر الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ مواقف مع الدموع ناشئة عن الحب لله، ورجائه، والخوف منه، والتسليم لأمره، وما جرى مجرى ذلك من الأحوال الإيمانية.

ومن الدموع الشريفة دموعُ الوفاءِ الناشئةُ عن حسن التذمم، ورعاية العهد؛ كما قال أبو الطيب:

**إن خير الدموع عيناً لدمعٌ بعثته رعايةٌ فاستهلا**

يقول الشيخ محمد الخضر حسين لما رأى جنازة شيخه عمر ابن الشيخ تذكرت قول خالي الشيخ محمد المكي بن عزوز فيه:

**إذا عُمَرُ بنُ الشيخ قام لدرسه فقم واغترف علماً بملء جفان**

ففاضت عيناي بالدموع.

ومن شريف الدموع دموع التشوق إلى الأهل والأحبة حال الغربة.

ومن أحسن ما جاء في ذلك ما ذكره ابن عبدالبر في بهجة المجالس؛ حيث قال: قال عوف بن مُحلِّم: عادلت عبدالله بن طاهر إلى خراسان، فدخلنا الرَّيّ - طهران - في السحر، فإذا قُمْرِيَّةٌ تُغَرِّد على فَنَن شجرة، فقال عبدالله: أحسن والله أبو كبير[1] في قوله:

**الا يا حمامَ الأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ وغُصنُكَ ميَّادٌ ففيم تنوحُ**

ثم قال: يا عوف! أَجِزْها، فقلت: شيخ كبير، وحُملت على البديهة، وهي معارضة أبي كبير، ثم انفتح لي شيء، فقلت:

**افي كُلِّ عامٍ غُرْبَةٌ ونُزُوحُ أمَا للنَّوى مِنْ وَنْيَةٍ فَتُريحُ**

**لقد طَلَّحَ البَيْنُ المُشِتُّ رَكائبي فهل أَرَيَنَّ البَيْنَ وهو طَلِيحُ**

**وأرَّقني بالرَّيِّ نَوْحُ حمامةٍ فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ القَرِيح يَنُوحُ**

**على أنها ناحت ولم تَذْرُ عَبْرَةً وَنُحْتُ وأسرابُ الدُّموعِ سُفُوحُ**

**وناحت وفرْخَاها بحيثُ تراهما ومن دُونِ افراخِي مَهَامِهُ فِيحُ[2]**

---

١ - يعني أبا كبير الهذلي الشاعر المشهور.

٢ - بهجة المجالس ١/٢٢٩.

ونفثةُ السحر في هذه الأبيات تَكْمُن في البيت الأخير.

ومعناه: أن هذه القُمْريةَ تنوح بالبكاء، وهي ترى أفراخها أمامها، فليس لِنُواحها مسوِّغ!

أما أنا فإن نُواحي على أولادي البعيدين الذين حال بيني وبينهم القِفارُ الواسعة.

ومن شريف الدموع دموع الإكبار للموقف النبيل، وأذكر أن أحد الوجهاء الأكابر الأغنياء استضاف مجموعة من الصائمين على مائدة الإفطار؛ فكان بجانبه أحد الضعفاء، من ذوي الفقر والمسكنة الشديدة، والعقول التي لا تستطيع تدبير نفسها لا في الملبس، ولا في المأكل، ولا في أي شأن من شؤونها؛ فكان ذلك الضعيف المسكين يتناول الإفطار، وكان يتساقط منه بعض الأطعمة، والأشربة على ثياب ذلك الوجيه، وكان ذلك الوجيه يباسطه، ويمازحه، وكأن شيئاً لم يكن؛ فكنت أرقب الوضع، ففاضت عيناي؛ إكباراً لذلك الوجيه المتواضع، وأقبلت عليه، وقلت له: ما أعظم وقع ذلك التصرف منك، ولعله وَقع مَوقِعَهُ عند الله؛ فجادت عينا ذلك الوجيه بالدمع.

ومن شريف الدمع دمع الدهشة والفرح، والتقدير لمواقف الشهامة، والبطولة.

وقريب منه دمع الانبهار للمعروف الكبير.

ومن أشرف الدمع دمع الرحمة، والسيرة النبوية حافلة بذلك، والمواقف فيه أشهر من أن تذكر.

ومن شريف الدموع دموع الود عند اللقاء بين المتوادين مودة خالصة طويلة؛ وأذكر من ذلك أن والدي رحمه الله[1] قد كف بصره في آخر عمره، فكان يحتاج إلى قائد يسير به، وكان يذهب يوم الجمعة راجلاً إلى المسجد الجامع ـ جامع الملك عبدالعزيز حالياً ـ وكانت بيت الشيخ محمد بن عبدالله المسعود رحمه الله[2] في منتصف الطريق، وكان بينه وبين الوالد محبة قوية صادقة؛ فإذا قربنا من بيت الشيخ محمد قال لي والدي: مِل بي إلى محمد العبدالله، فنقف على بابه، ويرفع والدي الصوت منادياً له: يا محمد، فيخرج من مجلسه، ويَدَع من عنده من الضيوف، ويأتي إلى الوالد، فيسلم عليه، ويعانقه، ويرفع صوته ويمدُّه قائلاً: إبراهيم، فيجيبه والدي بصوت أعلى: محمد ثم يتقابلان مدة ثلاث دقائق تزيد أو تقل، ولا يتكلمان

١ ـ وقد ولد عام ١٣١١هـ تقريباً، وتوفي في ١٤٠٤/١٢/٣٠هـ، وتولى إمارة الزلفي من عام ١٣٦١هـ ـ ١٣٧٠، ولعل الله ييسر ترجمة حافلة له.

٢ ـ هو الشيخ الزاهد العابد المعمر الذي يضرب به المثل في زهده وصلاحه، وقد عاش طويلاً حيث تجاوز المائة وخمسة عشر عاماً، وكان ممتَّعاً بحواسه حتى موته.

بكلمة، ولا ترى سوى تذراف الدموع منهما، وبعد ذلك يودعان بعضاً دون أن يدور بينهما أيُّ حديث.

وكان ذلك دأبهما في كل لقاء، وكنت صغيراً أتعجب من ذلك، ولا أدري ما السر.

ومن أنواع الدموع دموع الفرح الشديد كما قال الأول:

**طفح السرور علي حتى إنه من فرط ما قد سرني أبكاني**

**يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين في فرحي وفي أحزاني**

ومن غرائب الناس في الدموع أن بعضهم بطيء التبسم جامد العين، وبعضهم كثير الضحك جداً، ولا تكاد تدمع عينه، وبعضهم يغلب عليه الضحك والتبسم، وسرعان ما يبكي عند أدنى سبب.

وبعضهم لا تدمع عينه عند المصائب ولو جلّت، ولكنها تجود في مواقف الشهامة والبطولة.

وبعضهم تدمع عينه عند تذكر أمه، أو أبيه، أو أحد أحبته، وبعضهم لا تدمع عينه إلا إذا ذُكِرَ شخص بعينه.

وأذكر أن أحد الأحبة كثير المزاح، والإيناس لأصحابه، فإذا حلَّ ذكر الشيخ ابن باز رحمه الله فاضت عيناه بالدموع.

ويعض الناس أجود ما تجود عينه إذا وقف على قبر أمه.

وبعض الناس جامد العين تماماً لا تذرف عينه عند أي موقف، فلا تحركه المصائب، ولا تهزه المكارم على نحو قول الأول:

يُبْكَى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

ويعض الناس لا تدمع عينه عند المصائب العظام، ولكن يدمي مقلته موقف قد يمر على كثيرين دون أن يلقوا له بالاً.

يقول أحدهم: في يوم من الأيام كنت أسير في منتصف الليل عائداً إلى منزلي، فشاهدت أمامي رجلاً كبيراً في السن، وكان فقيراً ذا بنات، وكان يقود سيارته ومعه بناته في السيارة، وبعضهم داخل السيارة، وبعضهم في حوضها؛ حيث لم يكنْ داخل السيارة يكفيهم، فظننت أنه قد أتى بهن من مكان، ويريد الذهاب إلى بيته، وإذا به يتجول بهن من حي إلى حي في تلك الساعة من الليل، وبعد ذلك رجع بهن إلى المنزل.

يقول ذلك المتحدث: فرجعت إلى منزلي، وأنا أكفكف دموعي؛ رحمةً بذلك الرجل الذي نهض في تلك الساعة التي نام بها أترابه؛ رحمة بتلك البنيات، ورغبة في إسعادهن في ذلك الوقت؛ فنال ذلك الموقف مني نيلَه.

ومن مواطن الدموع مواقف الوداع؛ فللوداع لوعته، ودموعه، وزفراته، وللحكماء والشعراء مذاهبهم المختلفة في تصويره، ونظرتهم له.

فعن المعتمر بن إياس رحمه الله قال: «ودع الحسن رجلاً، وعيناه تهملان، وهو يقول:

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزيئةُ مالٍ أو فراقُ حبيب

وقال آخر لرجل ودَّعه: بقي علينا أن نَكُفَّ من غَرْبِ الشؤون[1]، ونستعين على فُرقة الوحشة بالكتب؛ فإنها ألسن ناطقة، وعيون رامقة».

وهذا ابن زريق يصور موقف الوداع، وما فيه من الدموع فيقول:

أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودَّعته وبودي لو يودعني ... طيب الحياة وأني لا أودعه

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحًى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه

ولأبي الطيب المتنبي وقفات مع دموع الوداع تملأ ديوانه؛ فها هو يصور لوعة الوداع، فيقول:

حُشاشة نفسٍ ودعت يوم ودعوا ... فلم أدرِ أيّ الظاعنين أشيعُ

أشاروا بتسليم فجُدْنا بأنفسٍ ... تسيل من الآماقِ والسّمُّ أدمعُ

---

١ ـ قوله: غرب الشؤون: الغرب: مسيل الدمع، والشؤون: الدموع.

ويقول في موضع آخر:

شوقي إليك نفى لذيذ هجوعي فَـارَقْتَنِي فأقـام بـين ضـلوعي

أوما وجدتم في الـصَّراة ملوحـةً مما أرقـرق في الفـرات دمـوعي

ويقول في موضع آخر:

ولم أرَ كالألحـاظ يـومَ رحيلـهم بعثن بكل القتـل من كل مشفق

أدَرْنَ عيونـاً حـائراتٍ كأنها مركبـةٌ أَحْـداقُها فـوقَ زئبـق

عشية يعدونا عن النظـر البكا وعن لـذة التوديع خوف التفرق

ومن أبدع ما قيل من الشعر في دموع الوداع للأصدقاء ما قاله أبو تمام يمدح عليَّ بن الجهم القرشي الشاعر، وقد جاءه يودعه لسفر أراده، وكان أصدق الناس له:

هيَ فُرْقَةٌ مِنْ صَاحِبٍ لكَ ماجِدِ فغـداً إذابـةُ كـلِّ دمـعٍ جامـدِ

فـافْزَعْ إلى ذخْـر الـشُّؤونِ وغَرْبِـه فالدَّمْعُ يُذْهبُ بَعْضَ جَهْدِ الجَاهدِ

وإذا فَقَـدْتَ أخـاً ولَـمْ تَفْقِـدْ لَـهُ دَمْعـاً ولا صَـبْراً فَلَـسْتَ بفاقـد

أما أحط الدموع وأسمجها، فهو ما كان عن رياء، وسمعة، وملق، وخور.

وأحط من ذلك دموع التماسيح، وهي دموع المجرمين الذي يقتلون ضحاياهم، ويتظاهرون بالحزن والرحمة.

وأقبح ما في ذلك ما يفعله كثير من الطغاة ممن يسومون شعوبهم القتل والتشريد ، ثم يخرجون عبر وسائل الإعلام ودموعهم تتساقط من عيونهم منددين بتلك الأعمال ، متبرئين من أهلها ، ثم يجدون من يخلع عليهم صفات العدل والرحمة.

**وأقتل داءٍ رؤية العين ظالماً يسيء ويتلى في المحافل حمدُه**

## أعط القوس باريها

هذا مثل عربي، ومعنى باري القوس: الذي نحتها، وسواها.

ومعنى المثل: استعن على عملك بأهل المعرفة، والخبرة، والحذق، والتخصص.

وهذا المثل يستعمل في الحث على الاستعانة بأولئك.

ولو أن الإنسان أخذ بهذا المثل لاختصر على نفسه كثيراً، ولَوَفَّر عليها جهداً كبيراً.

يحدثني أحد أعزة الأصحاب قائلاً: إنني أحب رياضة المشي، وكنت أمشي كيفما اتفق، لا أبالي بما ألبسه من حذاء وَقْتَ المشي.

وفي يوم من الأيام سمعت أن لنوع الحذاء أثراً في راحة القدم، وسرعة المشي، وكنت لا أعير ذلك الكلام اهتماماً.

وفي أحد الأيام قررت أن أذهب إلى أحد الأماكن المختصة، لشراء حذاء، فأشار عَليَّ أحد الباعة بنوع من الحذاء، وصار يذكر شيئاً من مزاياه، فاشتريته، وكان ثمنه غالياً نوعاً ما.

يقول ذلك الصاحب: فلما لبسته، وسرت فيه وجدت راحة في السير لم أجدها من قبل؛ فزاد إقبالي على المشي وأدركتُ أنني كنت مخطئاً في تلك الأيام التي كنت أمشي دون استشارة لأهل الاختصاص في ذلك الشأن، وأفدت درساً وهو أن الإنسان ينبغي أن يدخل البيوت من

أبوابها ، وأن يعطي القوسَ باريَها؛ لأنه ربما يجتهد دهراً طويلا في أي شأن من شؤونه وهو غير عالم بذلك الشأن ، فيسير على غير هدى ، راكباً متن عمياء ، خابطاً خبط عشواء سواء كان ذلك في أمر البناء ، أو المراكب ، أو العلم ، أو نحو ذلك.

ولو أنه استشار ، واستعار عقلاً آخر مختصاً لَفُتحِت له الأبواب ، وزالت عنه الحيرة والإضطراب .

هذا ما أوحت به خاطرةُ ذلك الصديق العزيز الذي أشار فيها إلى احترامِ التَخصص ، وترك الاجتهاد فيما قد كُفِيَ الإنسانُ مؤونتَهَ.

## ليس للفضيلة وطن

هذا العنوان جزء من خاطرة حكيمة جادت بها قريحةُ العلامة الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله لما كان مغترباً في مدينة برلين بألمانيا عام ١٩١٨، وتمام الخاطرة قوله رحمه الله: «إذا أَغلقَ المُحيطُ أعين رقبائك، وختم على أفواه عُذَّالك، ثم راودك على أن تنزع حلية أدبك ـ فقل: **ليس للفضيلة وطن**».

وهذه الكلمة الأخيرة تصلح لأن تُجرى مجرى الأمثال؛ لاختصارها، وعمق مدلولها.

ويعني بذلك أن التزام الفضل، وتَمَثُّلَ المروءة، واستحضارَ الرقابة الإلهية ـ ليس له مكان محدد سواء كان ذلك في الخلوة أو الجلوة، أو الحَلِّ أو الترحال، أو السفر أو الإقامة.

وإنما هي حال تقتضي من صاحبها الاستقامة، والاستدامة.

وإذا كان كذلك صار بمنزلة المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

وما أجمل تلك الحال التي يستوي فيها ظاهرُ الإنسان وباطنُه، فيكون سرُّه كعلانيته، وظلمة ليله مثل ضوء نهاره.

وكما أحسن العلامة الخضر في صياغة تلك الخاطرة نثراً فقد أحسن في صياغة حكمةٍ قريبة منها شعراً، حيث قال:

**وما أبصرت عيناي أجملَ من فتىً يخَـــافُ مقـــام الله في الخلـــوات**

## نزاهة محقق

أعرف حادثة وقفت على تفاصيلها تحمل في طياتها عبراً ومعانيَ رائعة.

هذه الحادثة وقعت قريباً، وتتلخص في أن أحد الأفاضل من أهل العلم قام بتحقيق كتاب في دائرة تخصصه، وعني به، وأخرجه للناس، وأهداه لبعض أحبته؛ فكان أن وقف أحدهم على بعض الملاحظات في التحقيق المذكور، وتردد في إبدائها لصاحبه؛ لما بينهما من الود، ولخشيته من أن تتكدر النفوس من جراء ذلك ـ كما هي العادة عند بعض من توجه لهم الملاحظات ـ.

وبعد تردُّدٍ قرر أن يخبر صاحبه عن تلك الملاحظات، فاتصل به عبر الهاتف، وشكره على الهدية، واستأذنه بإبداء ما رآه حول الكتاب بعد مقدمة لطيفة؛ فما كان من ذلك المحقق إلا أن رحَّب بذلك، بل وفرح به، واستمع إلى جميع تلك الملاحظات دون أن يعترض على واحدة منهن.

وبعد أن أكملها صاحبه شكره، ودعا له، ووعده بالأخذ بها جميعاً.

وبعد أيام بعث برسائل عبر الهاتف الجوال، وواصل من خلالها شكره، ودعاءه لصاحبه، وأخبره بأنه أخذ بجميع الملاحظات، وعدّلها للطبعة القادمة.

ولم يكتف ذلك المحقق الفاضل بما سبق، بل أخبر صاحباً له أنه فَرِحٌ مسرورٌ بتلك الملاحظات، وأنه يدعو لمن أبداها، بل أخبر أنه قام ببعض الصدقات، وأهدى ثوابها لمن أبدى إليه الملاحظات السابقة.

ولا أقول هذا الكلام تحليلاً، أو تزيُّداً، بل لقد وقفت على ذلك كله.

فهذه صورة رائعة ترينا أن النصيحة المقرونة بالحب، تؤتي أكلها، وأن الذين يتقبلون النصح موجودون غير معدومين كما قد يُتَصوَّر، وأن من أعظم ما يصد عن النصح وقبوله شوبَ النيات، والتربصَ بأصحاب الزلات، والحرصَ على تتبع العثرات.

من أسبابه ـ أيضاً ـ تكبر بعض من يصدر منهم أعمال عن قبول النصح، واعتقادهم أن أعمالهم صواب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد ذكرتني هذه الحادثة بحال أسلافنا الذين كانوا يبدون الملاحظات بصورة لائقة، ويتقبلون ما يوجه إليهم بنفوس مطمئنة؛ فالأكابر من الناس لا يأنفون من الاعتراف بالخطأ إذا أخطأوا، ولا يَتَلَبَّثُونَ في الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم، وعلت أقدارُهم.

فالراسخون في الفضيلة لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير.

وقد ينقل التاريخُ شذراتٍ من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة، فتهتز في نفوس قرائها عاطفة احترامٍ لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد.

وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب.

وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

وسبب هذا الإكبار عظمةُ الإنصاف، وعزةُ من يأخذ بها في كل حال.

ولو أخذت هذه الخصلة حظها من النفوس لعمَّ الائتلاف، ولقلَّ الاختلاف.

عن الربيع بن سلميان قال: «سمعت الشافعيَّ يقول: ما أوردت الحقَّ والحجة على أحد فقبلها مني إلا هِبْتُهُ، واعتقدت مودته.

ولا كابرني على الحق أحدٌ، ودافع الحجة إلاَّ سقط من عيني».

ونقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فيها جميعاً.

وبعد فهذه خاطرة أوحت بها نزاهة ذلك المحقق الفاضل.

## على سبيل المزاح

الحديث عن المزاح ذو شجون من جهه ما قيل فيه ، وما يحسن منه وما لا يحسن.

والحديث ههنا عن مسألة في المزاح ، وأحوال الناس فيه.

فَمن الناس من لا يبادر أحداً في المزاح ، ولا يرغب أن يمازحه أحد ، وهذا كفاف لا له ولا عليه ، وإن كان قد أعان نفسه من جهة التضييق عليها.

ومنهم من يمزح مع غيره ، ويتحمل كل ما جاءه من المزاح.

ومنهم -وهو المقصود ههنا- من يبادر إلى المزاح ، ولا يبالي أن يسرف فيه ، أو يُسِفَّ ، ويجرح.

وإذا عوتب قال : إنما أنا أمزح ، على حد قول الأول :

لي صاحب ليس يخلو لسانه عن جراح
يجيد تمزيق عرضي على سبيل المزاح

والمصيبة أنه إذا مُزح معه ، أو رُدَّ إليه بعضُ مزاحه -غضب أشد الغضب ، وعدَّ ذلك إهانةً له .

وهذا الضرب من الناس هم حُمىَّ الرَّبع ، ومُكَدَّرو المجالس ، وعذاب النفوس.

## الشقي من لا يثق بأحد..

جاء في كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٣٩٧ ما نصه: «الشقي من لا يثق بأحد لسوء ظنه».

وهذا كلام حسن؛ إذ إن من علامات الشقاء شقاءَ الإنسان من داخله؛ وذلك بأن يكون ذا نفس قلقة مريضة تفترض الشر، والفساد في الناس، وترى أنه هو الأصل.

فالذي يبتلى بهذا الداء لا ينظر إلى الناس إلا من خلال ذلك المنظار الأسود؛ فأنى له أن يَسْعَدَ في نفسه فضلاً عن أن يُسْعِد غيره، بل سينال خلطاءَه نصيبٌ من شقائه وعنته.

فسوء الظن مرض اجتماعي يتغلغل في الناس ويُؤذِن بالقطيعة، وإفساد العلاقات، ويقطع السبيل على الإصلاح وتأليف القلوب، والتعاون على مرافق الحياة

ثم إن المبتلى بهذا الداء لن يبقي للمودة عيناً ولا أثراً؛ فكلُّ مَنْ مَدَّ له يداً للصلح، أو العفو، أو زيادة التقارب ـ شك في المقاصد، ودخل في النيات، ووضع العراقيل أمام تلك المساعي الحميدة.

وإذا زاره أحد من الناس صار يتحفز، وينتظر ما تسفر عنه تلك الزيارة؛ زعماً منه أن ذلك الزائر إنما جاء لمصلحة ماليه، أو لطلب جاه، أو نحو ذلك.

وإذا سمع كلمةً عامةً في ذمٍّ ظاهرة ما ـ نَزَّلها على نفسه، وظن أنها لم تقل إلا فيه، ولم يُقْصَدْ بها أحدٌ سواه.

وإذا محضه النصحَ أحدُ أقاربِه، أو أصدقائه ـ شك في تلك النصيحة، واتهم ذلك الناصح بأنه متتبع لزلاته، باحث عن هفواته، وكأن لسان حاله يقول:

**ومن العجائب تهمتي لك بعد ... كنت الصفيَّ لديَّ والخُلْصانا**

**وتوقعي منك الإساءة جاهداً ... والعدل أن أتوقع الإحسانا**

وهكذا يقطع الطريق على كل محاولة للخير، والإصلاح؛ بسبب نفسه القلقة التي تنظر إلى الدنيا من خلال منظارها المُغَبَّش الأسود.

ويزداد الأمر سوءًا إذا أصيب بداء قلة الثقة مديرٌ أو رئيسٌ، فلا شك أنه سيحمِّل نَفْسَه ومَنْ تحت يدِه أعباءًا ثقيلةً، وسيفوته مصالحُ كثيرة؛ لأن الريبة داءٌ يتفشَّى، ويعدي، ويسري إلى مَنْ يتعامل مع مَنْ أصيب به، فتكون حياة أولئك محشوُّةً بالشكوك والأوهام، وتقف تلك الريبة عقبةً كؤوداً أمام كل رقي، وفلاح، وإبداع.

وإن من علامات السعادة للإنسان أن يكون ذا نفس مشرقةٍ تُحِبُّ الناس، وتحسن الظن بهم.

فإذا كان كذلك جَلَب لنفسه ولغيره السعادة، وأمكنه الإفادةُ منهم، والتعاون معهم.

وهذا هو الأصل الذي ينبغي أن يسير عليه المسلم في حياته.

فما أجمل أن يحسن الإنسان الظن، ويأخذ الناس على ظواهرهم، وإن بدا له ريبةٌ من أحد فليحترس بالفطنة، والأخذ بالأسباب المشروعة؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الحجرات: ١٢.

«وإياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث».

## كل رأس به صداع

هذا مَثَلٌ تَضْرِبُه العربُ لكل من كان ذا رياسةٍ، أو مكانة؛ فيرون أنه لابد له من تلك الضريبة، بحيث يصيبه من الإساءة، وسوء الظن ما يصيبه؛ لأن مكانته تَفْرِضُ عليه أن يعامل أناساً ذوي طبائع مختلفة، وأمزجة متباينة؛ فينتج من جرَّاء ذلك أذىً، وعنتٌ كَحَالِ الرأس من البدن؛ فإن الرأس غالباً ما يشتكي الصداع لأدنى عارضٍ يصيب الجسم.

ولكن الذي يوطِّن نفسه على ذلك يصبح ذلك الصداع جزءًا لا يتجزأ من حياته، فلا يبالي به، ولا يتشكى، أو يتبرم منه.

وتلك منزلة تحتاج إلى تدريب، ومراوضة للنفس.

ولا يستغني عن ذلك التوطين مَنْ كان أباً، أو معلماً، أو مديراً، أو قاضياً، أو رئيساً؛ لأن كلَّ أولئك محتاج إلى توطين نفسه على ملاقاة الأذى الذي لابد منه لكل من اتصف بوصف الرأس.

## توبة حاسد

الحسد داء عضال، وسمٌّ قتَّال، لا يسلم منه إلا من سلَّمه الكبير المتعال؛ ولهذا قيل: «لا يخلو جسد من حسد؛ ولكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه».

والحسد هو تمني الحاسد زوال نعمة المحسود، أو هو كراهة الحاسد وصول النعمة إلى المحسود.

والحسد في حقيقته إنما هو اعتراض على قدر الله؛ لأن الحاسد لم يرض بقضاء الله، ولم يُسلِّم لقدره.

فلسان حال الحاسد يقول: إن فلاناً أُعطي وهو لا يستحق، وفلاناً منع وهو يستحق العطاء.

فكأنه بحسده هذا يقسم رحمة ربه بين العباد، وكأنه يقترح على ربه ما يراه ملائماً في نظره! فهو بصنيعه هذا يقدح في حكمة الله ـ عز وجل ـ وَوَضْعِهِ الأشياء في مواضعها اللائقة بها؛ فمن تمام الإيمان تركُ الحسدِ، والتسليمُ لله في جميع الأمور، فالمؤمن الحق لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لإيمانه بأن الله هو الذي رزقهم، وقدر لهم معايشهم؛ فأعطى من شاء لحكمة، ومنع من

شاء لحكمة، وأنه حين يحسد غيره إنما يعترض على قدر الله، ويقدح في حكمته.

ولهذا قيل: «من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يَدْخُلْهُ حسد».

ويحدث أحد الناس عن نفسه فيقول: كنت لا أحب أن يثنى على أحد بحضرتي، وكنت أجد ألماً إذا سمعت أن أحداً من الناس خصوصاً من معارفي قد نال كرامة، أو جاهاً، أو نجاحاً في أي شأن من الشؤون.

بل كنت أحاول الإنقاص من شأن من نال شيئاً من ذلك.

ولم تكن نفسي تطاوعني على تهنئة أحد على نجاح حصل عليه.

وكنت أتضايق من جهتين: من جهة تألمي لإنجازات الآخرين، ومن جهة تألمي لهذا الشعور الذي أجده في نفسي؛ لعلمي بأن ما أقوم به حسد، وأنه كبيرة من الكبائر.

ولكني أجد ثقلاً شديداً في معالجة هذا الداء.

وبالرغم من ذلك فقد حاولت جاهداً كي أتخلص منه.

ومما أخذت به في هذا الشأن أن وطنت نفسي على ألا أبدي أيَّ تَكَرُّهٍ بقول أو فعل أو إشارة إذا سمعت أو رأيت نعمة سيقت إلى

أحد من الناس؛ وعانيت من ذلك معاناة شديدة حتى أعانني الله على ذلك.

ثم أصبحت أجاهدها على الفرح بنجاحات الآخرين، وعلى المبادرة لتهنئة من يحصل على شيء من هذا القبيل؛ فكان من جراء ذلك أن وجدت راحة في نفسي، وحباً للآخرين، وقرباً منهم.

ولا أخفي أنني أجد صعوبة بعض الأحيان في مقابلة ذلك الطبع الفاسد، ولكن ذلك لم يمنعني من المجاهدة والصبر، فسلمت بذلك من تشوش القلب، وضيق الصدر، والاشتغال بانتقاص الآخرين، والبحث عن عيوبهم، أو ما يحقِّر من شأنهم.

وبعد فهذه تجربة ذلك الحاسد الذي فكر بتلك التوبة التي لا تخطر ببال كثيرين ممن يظنون أن التوبة لا تكون إلا من ذنوب ظاهرة مشهورة من نحو ارتكاب الفواحش أو شرب الخمور وهم غافلون عن مثل تلك الكبائر التي تفري فَرْيَها في الحسنات، والمجتمعات.

## عَنْزُ السوءِ

عَنْزُ السوءِ مَثَلٌ عند العرب يُضْرب للأحمق الذي يسعى إلى حتفه بظلفه، ويسيء إلى من يحسن إليه.

قال الأول:

**كعنز السوء تَنْطَح مَنْ خَلاها وترأمُ مَنْ يحُدُّ لها الشفارا**

أي إن هذه العنزَ تعاكس وتسيء إلى من يحنو عليها.

وتساير - في الوقت نفسه - من يسن لها السكين؛ فتطأطأُ رأسها له؛ كي يذبحها.

وكم من الناس من هو شبيهٌ بتلك العنز؛ فتجد على سبيل المثال من الأولاد مَنْ يسومُ والديه سوءَ العذابِ عناداً، و عقوقاً، وإساءة أدبٍ مع أنهما يسعيان جُهْدَهما لما فيه مصلحته دون أن يرجوا منه جزاءًا ولا شكوراً.

ثم تراه يتذلل غايةَ التذلل، ويُسْلِمُ قيادهَ لمن يسير به نحو الهاوية، من صديق سوء، أو نحوه.

وكذلك تجد من الناس من يتكبر،ويسيء إلى من يحسن إليه ويتواضع له.

وتجده يخفض رأسه لمن يسومه الخسف والهوان.

وتجد مِن الوالدين من له نصيب من ذلك الوصف؛ فتراه لا يأبه بابنه البار الرحيم، ولا يلاقيه إلا بالصلف والشدة، وقلة الشكر.

ثم هو يلاقي ابنه الآخَر العاقَّ بكل سكون، وتراه يشكره على مجرد كف الأذى.

وتجد مِنْ بعض مَنْ له إدارة ورياسة لا يقدِّر ذا الخلق والحزم والإخلاص في العمل.

وفي الوقت نفسه تراه يهاب الموظف الكسول والبذيء، ويمنحه العلاوات وسائر الامتيازات؛ خشية من سلاطته.

وقس على هذه النبذ الكثير الكثير ممن لهم شبه بعنز السوء.

## ليست بذات عقارب

هذا العنوان جزء من بيت للنابغة الذبياني من قصيدة قالها يمدح عمرو بن الحارث الأصغر حين هرب إلى الشام ونزل به.

وتمام البيت قوله:

**علي لعمرٍو نعمة بعد نعمة　　　لوالده ليست بذات عقارب**

وهو ضمن قصيدة مشهورة يقول النابغة في مطلعها:

**كِليني لِهَمٍّ يا أميمةُ ناصبِ　　　وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب**

والشاهد من القصيدة قوله:

**علي لعمرٍو..................　　　..............................**

ومعنى البيت: علي لعمرٍو نعمةٌ حديثة بعد نعمة قديمة لوالده، لم يكدِّرهما مَنٌّ ولا أذىً.

وقد أجاد النابغة أيما إجادةٍ حين قال:

**..............................　　　لوالده ليست بذات عقارب**

فقوله: «ليست بذات عقارب»: جرى مجرى الأمثال؛ لأن العقارب تلدغ، وتؤذي، وربما تميت بِسُمِّها.

وكذلك المنة، فهي تؤذي أيما أذية؛ فالعطية تتكدر بالمن، وتصفو بتركه.

ولهذا كان من فضل الله على المؤمنين أن وعدهم بأن يجازيهم بالأجر غير الممنون.

وهو الذي يعطاه صاحبه مع كرامة، بحيث لا يُعَرَّض له بمنة.

والمعنى أن أجرهم سرور لهم لا تشوبه شائبة كدرٍ؛ فإن المنَّ يكدِر، وينغِّص الإنعام، قال الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ البقرة:٢٦٤.

وباب الصدقة لا يقتصر على المال فحسب، بل في شتى ضروب الإحسان؛ فمن تَفَضَّل بشيء من ذلك فليتمه بترك المنة؛ لأن من الناس من إذا أعطى عطاءً، ، أو بذل نصيحة، أو أسدى معروفاً- أتبعه بالمن والأذى، والإدلال على من أحسن إليه.

وذلك الصنيع خلق ساقط، لا يليق بأولي الفضل، ولا يحسن بأهل النبل؛ فالمنة تصدع قناة العزة، فلا يحتملها ذوو المروءات إلا حال ضرورة، ولا سيما منة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدر رفيع.

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ :«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

قال أبو ذر: خابوا وخسروا: منهم يا رسول الله.

قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» رواه مسلم.

قال رجل لبنيه: «إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها».

وقالوا: «المنة تهدم الصنيعة».

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما-: «لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتعجيله، وتصغيره، وستره؛ فإذا عَجَّلَه هنأه، وإذا صغَّره عظمه، وإذا ستره تممه».

قال الحكيم العربي:

**أفسدت بالمن ما أسديت من حسن ليس الكريم إذا أسدى بمنان**

ومع أن المنة وتعداد الأيادي ليس من صفات الكرام - فإنها تسوغ في حال المعاتبة والاعتذار.

قال ابن حزم رحمه الله: «حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة والاعتذار، فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي، وذكر الإحسان، وذلك غاية القبح فيما عدا هاتين الحالتين».

## الروح

الروح التي في البدن هي النفس، والجسد هو مكانها، وهي التي تسري فيه كلّه.

وسميت بذلك لأن بها حياةَ البدن.

والحديث ههنا ليس عن الروح، ولا عن الخلاف الطويل في حقيقتها.

وإنما هو حديث عن كلمة الروح وما فيها من معنى الحياة.

فمن الملاحظ أن للفظ الروح عدةَ معانٍ غير الروح التي تفارق البدن بالموت والتي هي النفس.

وأن الروح تطلق في شتى تصاريفها على المعاني العالية.

وبناءًا على ذلك فإن الحاجة إلى الروح في الأعمال عموماً ماسة؛ لأن أيَّ عمل يخلو من الروح عملٌ خاوٍ هامدٌ مآلهُ إلى الاضمحلال، أو قلة الفائدة.

وهذا ما يفسره لنا كثرة الاجتماعات، والمداولات في كثير من الأحيان دون جدوى.

والسبب في ذلك في المقام الأول غياب الروح.

ويفسر لنا كثرة الجهود المبذولة، وخسارة الأموال الهائلة دون نتيجة تذكر، أو تساوي ما يبذل.

والسبب أن ما يُقام من تلك الأعمال خِلْوٌ من الروح، مرادٌ به إلقاءُ التبعةِ، والسلامةُ من اللوم.

وقل مثل ذلك في شأن كثير من الجهود التي تبذل في سبيل الإصلاح دون نتيجة تذكر.

والسبب أنها خالية من الروح.

وبالجملة فإن جذوة الروح إذا سرت في عمل، أو جهد باركته وزكّته، وجعلته لذيذَ الثمار محمودَ العواقب.

## إن الونى طرفٌ من التضييع

ومعنى الونى: الضعف والفتور، ومعنى طرف: جانب.

أي إن الضعف والفتور، وترك الجد، وتفويت الفرص جانب من جوانب الفساد التي تضيع بها الأمور.

وهذا مثل عربي يستعمل في الحث على الجد والاجتهاد.

والذي يلاحظ في حياة الناس أن كل إنسان عنده أدنى مُسْكة من عقل يتمنى لنفسه الخير سواء في أمر دينه، أو دنياه، فتراه يتمنى أن يرتقي بعلمه، وعمله، وصحته، وماله، ونحو ذلك من مصالحه.

غير أن هناك آفة تعتري أكثر الناس، وهم فيه ما بين مستكثر مسترسل معها، ومستقل مُقْصِرٌ عن التمادي فيها.

تلكم هي آفة التواني، والتسويف، والتأجيل.

فهذه الآفة لا يكاد يسلم منها إلا من سلَّمه الله من أصحاب الهمم العلية، والنفوس الأبية، والإرادات القوية.

فكم من الناس من يبقى على معصيته مُسَوِّفاً بالتوبة، وكم من الناس من يؤجل أعماله اليومية إلى غد بغير مسوغ ولا مقتضي، وكم من الناس من تتصرم أيام عمره، وهو يسوِّف ويؤجل في

اغتنامها بما ينفع.

وكم من الناس من يقول: إذا تزوجت، أو تخرجت من الجامعة، أو انتقل عملي إلى بلدي، أو إذا واتتني الظروف ـ سأعمل كذا وكذا، وسأبدأ بالمشروع الفلاني علمياً كان، أو تجارياً، أو غير ذلك.

وكم من الناس من يقول: سأبدأ ببرنامج أمارس من خلاله رياضة، أو أتعلم لغة أخرى، أو نحو ذلك دون أن يبدأ بداية حقيقية، وإنما هي أحلام تمر في خياله مرور الطيف.

وكم من الناس من يقول: سأباشر حلَّ تلك القضية المعلقة المؤجلة؛ من نحو ميراث، أو شراكة، أو غيرها؛ فتمر الأيام دون أن يحرك ساكناً.

وهكذا تمر الأيام، وتضيع الفرص من بين يديه دون أن يغتنمها، فيخسر، ويندم في مستقبل أيامه أشدَّ الندم.

**كم فرصة ذهبت فعادت غُصَّةً ... تشجي بطول تلهفٍ وتندمِ**

ولعل من أعظم أسباب ذلك صعوبةَ البداية في العمل؛ فإذا ما شرع الإنسان فإنه سيصل إلى مبتغاه ـ بإذن الله ـ وسيكسر الحواجز والسدود التي تقف أمامه.

أما إذا صارت تلك الرغبات مجردَ أماني لا أقلَّ ولا أكثر فلن

يصدر عنه أي خير لنفسه أو غيره، وصدق أبو تمام إذ يقول:

**مـن كـان مرعـى عزمـه وهمومـه روضَ الأمـاني لم يـزل مهـزولا**

وكان البيت يعجب أبا الطيب المتنبي كثيراً.

قال بعض الحكماء: «التسويفُ لمن يعلم أن المنية تأتيه بغتة ـ غرورٌ».

فالتسويف والتأجيل داء عضال، وهو ناتج عن ضعف الإرادة، ودنو الهمة، والتراخي مع النفس، وصحبة الكسالى والمسوفين، والأمن من مكر الله، وطول الأمل.

ولهذا الأمر آثارٌ وخيمةٌ في الدنيا وفي الآخرة، فهو سبب للحسرة والندامة، والحرمان من الأجر والثواب، وهو سبب لتراكم الذنوب، وصعوبة التوبة، وتراكم الأعمال، وصعوبة الأداء.

**فانهض إذ ما لمحت الخير في عملٍ وخلِّ (سوف) لعزمٍ خاملٍ واهي**

وصدق ابن فارس رحمه الله ـ إذ يقول ـ:

**إذا كـان يؤذيك حَرُّ المصيف ويُـبسُ الخريـفِ وبـردُ الـشتا**

**ويلـهيك حـسن زمـان الربيـع فأخـذُك للعلـم قُـل لـي متـى**

## البستانُ كلُّه كُرُفس

الكرفس: نوع من الخضار يضاف إلى بعض الأكلات.

ومعنى المثل: أن صاحب بستان تعاهد حقله، وزرعه، واجتهد في عمله متوقعاً أن يَغِلَّ أطيب الثمار، فعاش على ذلك الأمل.

وبعد ذلك فوجئ بأن البستان لم ينتج سوى الكرفس، وأن شيئاً مما أمَّله لم يخرج من أرضه؛ فصار ذلك مثلاً يضرب للتعبير عن ضياع الأمل، وخيبة الرجاء.

وهو مثلٌ صالحٌ لكل أمرٍ يؤمَّل فيه، فلا يكون كما أمِّل، كما أن فيه إشارةً إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يفرط في التفاؤل، بحيث إذا جاء الأمر على خلاف ما يريد ذهبت نفسه حسرات.

بل يجمل به أن يتفاءل، ويجمل به في الوقت نفسه أن يوطن على قبول النتائج بعد أن يأخذ بالأسباب.

وكذلك الحال بالنسبة لمن أسدى معروفاً لأناس، وتوقع أن يكون له أثرٌ بالغٌ في نفوس من أحسن إليهم؛ فضاع عند بعضهم؛ فلا ينبغي أن يشق ذلك عليه؛ فالنفوس في تَلَقِّي الجميل متفاوتةٌ كرماً ولؤماً؛ فإذا وقع الإحسان موقعه عند بعضهم دون بعض فحسن، كما قال الحكيم العربي:

إذا الأرض أدّت بعض ما انت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارض

وإذا أراد الإنسان السلامةَ، وحسنَ العاقبةِ فليقدِّمِ الجميل دون انتظار جزاء أو شكور على نحو قول الأول:

بُثَّ الصنائع لا تحفل بموقعها فيما نأى أو دنا ما كنت مقتدرا

فالغيث ليس يبالي حينما انسكبت منه الغمائم تُرْباً كان أو حجرا

وقس على هذه النبذة -وهي توطين النفس على خيبة الرجاء- كثيراً من الأحوال؛ فذلك سببٌ لتخفيف وقع المصيبة، أو تلاشيه.

## ثقافة الاستغناء

مما يغيب عن الأذهان كثيراً أن الغنى الحقيقي ليس بالشيء إنما هو بالغنى عنه.

ولقد جلّى هذه الحقيقة رسول الله ﷺ حين قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى القلب».

وجاء في حكمة ديوجينيس الكلبي اليوناني: «ليس الغنى بكثرة ما نملك، إنما الغنى بكثرة ما نستغني عنه».

والحقيقة الماثلة للعيان تؤكد ذلك؛ فكلما كثر ترفُ الإنسان، وزادت حاجياته ـ عظم تعلقه بها، وعز عليه فراقها، أو الاستغناء عنها؛ فصار كالأسير لها.

وإذا تخفف من القيود التي ترزح تحتها نفسه قَلَّ عناؤه، وتوطّن على القليل مما يعيش به، سواء كان ذلك في شأن المركوب، أو الملبوس، أو المطعوم، أو المشموم.

أو كان في شأن الوجاهات، أو الصداقات، أو العلاقات، أو الجلسات، أو الزيارات.

فكلما زاد استغناء الإنسان، وتوفر على أقل القليل من ذلك زادت حريته، وعظمت سعادته.

بل لقد عُدَّ من قبيل السخاء سخاوة الإنسان عما في أيدي الناس؛ فإن هو كف عما في أيديهم، وتكرم في الإحسان إليهم فقد استكمل السخاء وإذا توطَّن الإنسان على ترك التطلع إلى ما لا سبيل له إليه، أو لا حاجة له به اطمأن قلبه، ولم تذهب نفسه حسرات.

ولقد أحسن محمود الوراق في تجلية هذا المعنى حين قال:

**وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركتُه فيكون أرخصَ ما يكون إذا غلا**

وما من ريب أن أعظم الاستغناء استغناء الإنسان عما حرَّمه ربه عليه، وذلك بفطم نفسه عن جميع ما لا يحل له؛ فذلك هو العز الحقيقي، والشرف العالي.

وبناءً على ذلك فإنه ينبغي -كما يقول الرافعي- ألا تُقَدَّرَ ثروات الإنسان بأمواله ومُسْتَغلاَّته، بل بعدد الأشياء التي يستطيع أن يعيش غير محتاج إليها.

## ثقافة الخدمات

الخدمات التي تُقدم للناس من قبل المؤسسات الحكومية أو التجارية أو غيرها سواء كانت مجانيةً، أو مقابلَ مبلغٍ ماليٍّ أو نحوه ـ تحتاج إلى ثقافة من هذا النوع سواء مِنْ قِبَلِ مَنْ يقَدم تلك الخدمات، أو من تقدم إليه.

فَمَنْ يُقَدِّم الخدمةَ يحسن به، أو يجب عليه أن يراعيَ المصداقية، والأمانة، وتقديمَ ما لديه بأحسن طريقة، وأكمل وجه؛ بما يناسب المقام والحال.

والذي تُقَدَّم له الخدمةُ يَحسن به أو يجب عليه أن يراعيَ حدودَه؛ فلا يكون مجردُ دفعِه للمال مقابلَ الخدمةِ ذريعةً لإهانة مَنْ يقدِّمها، أو إذلاله.

وإذا روعي ذلك الأمر حصل كل طرفٍ على حقه دون وكْسٍ ولا شطط.

وإذا وُجد التفريط من كلا الطرفين أو من أحدهما ـ قامت المشكلات، وثارت الثوائر.

والذي يلاحظ أن تفريطاً كبيراً يحصل في هذا السياق؛ فكثير من القطاعات التي تتعامل مع الجمهور تعد الوعود العريضة، وتضع العنواناتِ الكبيرةَ، والدعاياتِ المُرَغِّبَةَ التي تُغْري بالإقبال عليها؛ حيث تَدَّعي أنها ستقدم أرقى الخدمات، وستأتي بما لم يأت به الأوائل.

فإذا أقبل الناس عليهم كذب الخُبْرَ الخَبَرُ، ؛ فلم يجدوا إلا أقلَّ القليل مما وُعِدوا به.

ومن هنا تبدأ المشكلات، وتكثر الشكاوى، والمرافعات.

وفي المقابل تجد أن بعض القطاعات قد تفي بما تعد به، فتقدم خدماتٍ رائقةً رائعة يشهد لها بذلك أولو العدل والإنصاف؛ فيحسن بالمتعامل معها أن يعطيَها حقها بكل أدب وأريحية.

وإن تكرم، وقدم الشكر فذلك فضل وإحسان.

غير أن نفراً غير قليل من الناس لا يُحسن التعامل مع مَنْ يقدِّم له الخدمة، فترى بعضهم يتعامل مع من يقدمها وكأنه مملوك عنده؛ بل إن المملوك لا يجوز أن يعامل إلا بالعدل والإحسان، فترى الواحد من هؤلاء يكثر الأوامر، ويتسلط، ويؤذي بالكلمات الجارحة، وتراه لا يسمح بأي خطأ أو تقصير ولو كان غير مقصود، ولربما تطاول ومدَّ يده بالضرب على بعض من يقدمون الخدمة من العمال وغيرهم.

بل قد يتعدى حدود اللياقة والنظام؛ كل ذلك بحجة أنه قدم مالاً مقابل خدمته.

وما هكذا تورد الإبل، ولا هكذا يكون التعامل.

فالعاقل الرشيد هو الذي يعرف مقدارَ ما يعطي، ومقدارَ ما يأخذ، ولا يسمح لنفسه بالتطاول أو الإساءة على أحد، وإن بدر منه شيء من ذلك بادر إلى الاعتذار.

ثم إن قُصِّر في خدمته، أو شيء من حقوقه أحسن في الطلب، وأَخْذِ الحق دون تطاول أو سفه.

ومما يدخل في هذا القبيل ما يكون في الخدمات العامة في نحو المتنزهات، والطرق العامة، ودورات المياه التي تكون في المساجد أو غيرها.

وكذلك الحال بالنسبة لمواقف السيارات، أو المظلات التي يستظل بها المارة؛ فتجد أن تلك الخدمات قد لا تُقَدَّم بالصورة المطلوبة؛ فيعوز كثيراً من تلك الأماكن تقديمُ الخدمة الملائمة، فلا تكون النظافة وتعاهد تلك الأماكن كما ينبغي، وقد تكون دورات المياه متروكة دون إصلاح أو متابعة.

فمن اللائق أن تراعى تلك الأحوال، فيسعى القائمون على تلك المرافق سَعْيَهم لتقديم الأكمل والأمثل.

ومن الجدير بمن بنى مسجداً -على سبيل المثال- أن يُعنى بمرافقه، إذ يحصل كثيراً أن يَبْذُلَ محسنٌ مالاً لعمارة مسجد، ثم يَتركُه دون تعاهد وإصلاح، فما هي إلا مدة يسيرة ثم يتصدع بنيانه، وتفسد مرافقه.

ولو أن هذا المحسن آثر ذلك المرفق بشيء من ماله زيادة على ما أنفق بحيث يُوكِل إلى أحد من الناس المتابعة والإصلاح لكان في ذلك خيراً على خير.

وفي المقابل تجد أن كثيراً من الناس لا يراعي ما يُبْذَلُ في المرافق العامة سواء كانت حكومية أو غير حكومية؛ فتراه يعبث بها، ولا يبالي أن يفسدها، أو يلطخَ جدرانها بالكتابات البذيئة التي تشوه المكان حساً ومعنىً.

وتراه لا يبالي في رمي بقايا طعامه، ولا يأبه في تلويث المكان الذي جُعل لعامة الناس.

وكذلك الحال بالنسبة لمن يأتي لبعض مواقف السيارات؛ فلا يقف في المكان المخصص بل يأخذ مكان اثنين أو ثلاثة.

ولو أنه التزم بعلامات الوقوف، وراعى غيره ممن يريد الوقوف إلى جانبه لاتسع المكان.

ولكن الأثرة، وقلة العناية بثقافة الخدمات العامة ـ تقود إلى مثل تلك التصرفات.

وبعد فهذه نبذة يسيرة مما يقع فيه الخلل من هذه الناحية، من ناحية التقصير في أداء الحقوق، أو التقصير في حسن الطلب.

وهذا كله يدفع إلى مزيدٍ من الحرص لنشر ثقافة الخدمات؛ حتى يعرف كل أحد حَدَّه؛ فلا يحصل التقصير في حق أحد من الأطراف؛ فتطوى بذلك قضايا لا تحصى كثرة، ويتحقق بذلك إقامة كثير من شعب الإيمان، كالإيثار، وترك الأثرة، ومحبة الخير للناس، وإعطاء الطريق حقها، وإماطة الأذى عنها، ونحو ذلك من الشعب الإيمانية.

الإنسان ـ في جبلته ـ ضعيف كما أخبر بذلك رب العالمين بقوله : ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾.

وهذا الضعف يتفاوت من إنسان لآخر؛ فالناس يتفاوتون في ذلك تفاوتهم في الإيمان، واستعدادات النفوس، وقوة الإرادة، وصدق العزيمة.

بل إن الإنسان نفسه تتفاوت قوته وضعفه، فهو تارة يضعف، وتارة يقوى.

ثم إنه يقوى على فعل أمور أو ترك أمور، ويضعف في الوقت نفسه عن فعل أمور أو ترك أمور.

فمن الناس من يقوى على فعل الأوامر التي كلَّفه الله بها شرعاً، غير أن نفسه تضعف أمام النواهي، وبعضهم عكس ذلك.

وبعضهم يسهل عليه فعل كثير من الأمور التي تشق على غيره، ولكنه يضعف أمام أمور يسيرة قد يقوى عليها غيره.

وهذا يؤكد على الإنسان أن يعرف نفسه، ويدرك مكامن القوة والضعف فيها؛ فإذا ساعفته طبيعته على القيام ببعض الأعمال التي يجب

عليه أو يستحب له القيام بها ، وساعفته كذلك على ترك بعض الأعمال التي يجب عليه ، أو يستحب له تركها ـ فليحمد الله ، وليتعاهد ذلك الأمر بالزيادة والقوة.

وإذا كان الحال عكس ذلك فليعرف مواطن خلله وضعفه ، ولَيَسْعَ إلى ملاحظة ذلك الضعف ، وليحذر من الاستسلام له ، أو الانقياد لدواعيه.

ومما يعينه على ذلك : الدعاء ، والاستعانة بالله ، و الصبرُ ، وتدريب النفس على احتمال الترك أو لزوم الفعل ، والبعدُ عن المثيرات التي تُضْعف النفس.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ سرعة الفيئة إذا حصل تفريط أو تقصير؛ فتلك أسبابٌ تعين على اجتناء الفضائل ، واجتناب الرذائل.

## الغرور العلمي

العلم ثمرةٌ لا تفضي بصاحبها إلا إلى السعادة، ولا تورثه إلا العز والشرف والسيادة.

وجمال العلم إصلاح العمل، وحليته وزينته التواضع، والحلم، وتحري الإنصاف، ولزوم العدل؛ فذلك مما يجعله لذيذ المطعم، زاكي الثمر.

ولقد كان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يتمثل كثيراً بهذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| الحلم والعلم خَلّتا كرمٍ | للمرء زينٌ إذا هما اجتمعا |
| صنوان لا يستتم حُسْنُهما | إلا بجمعٍ بذا وذاك معا |
| كم من وضيع سما به الحلمُ والـ | علم فحاز السناء وارتفعا |
| ومن رفيع البنا اضاعهما | اخمله ما اضاع فاتضعا |

ولا ريب أن التواضع إنما يجمل من الأكابر من ذوي العلم والمروءات؛ حيث يرفعهم في سماء السيادة، والمجادة درجات.

قال البحتري في أحد ممدوحيه:

| | |
|---|---|
| دانٍ إلى أيدي العفاة وشاسعٌ | عن كل ندٍّ في الندى وضريب |
| كالبدر أفرط في العلو وضوؤه | للعصبة السارين جدُّ قريبِ |

هذا وإن من أعظم آفات العلم التي تَذْهَبُ برونقه، وتفقده بهجته آفةَ الغرور، والتعالي، وازدراء ما عند الآخرين.

وإن تلك الآفة لا تقتصر على فئة معينة في هذا الباب، وإنما هي كالأمراض الفتاكة التي تغزو كثيراً من النفوس؛ فتفري فَرْيَها فيها.

**ومن مظاهر ذلك** ما تجده عند بعض حملة الشهادات العالية؛ حيث تراهم يتطاولون على من دونهم، ولا يكادون ينظرون إليهم إلا بألحاظ الازدراء، مع أن هؤلاء المُحْتَقَرين قد يكونون أرقى ممن يحتقرهم بمراحل.

**وكذلك الحال** بالنسبة لبعض مَنْ فتح الله عليهم بالعلم وليسوا من حملة الشهادات؛ حيث ترى بعضَهم يُزْري بحملة الشهادات، ويُعَرِّض بهم وبشهاداتهم، ولا يكاد يُسَلِّم لهم فيما يرونه، أو يحررونه.

ولا ريب أن ذلك المسلك غير سديد ولا رشيد؛ ذلك أن الأمر ليس كما يتصوره ذلك العاتب الزاري؛ فالأصل أن حاملي الشهادات العالية قد يكونون أقرب إلى الدقة، والتثبت، والموضوعية، وتحري الصواب.

وإذا كان فيهم من ليس في قبيل أهل العلم والفضل فإن ذلك ليس مسوغاً لطرد القاعدة، وتعميم الحكم.

**ومن مظاهر الغرور العلمي** ما تراه من بعض المتخصصين في أي فرع من فروع العلم؛ حيث تراه يحتقر من ليس بمتخصص في ذلك الفن، وتراه لا يريد أن يتحدث، أو يكتب فيه إلا من هو على شاكلته.

فإذا قرأ لأحد، أو استمع وهو يتناول موضوعاً في دائرة تخصصه نظر إليه نظر المحتقِر له، المتكبر عليه.

ولا ريب أن المتخصص المتعمق في تخصصه، العالم بدقائق فنِّه ـ هو أولى من يتناوله، وأَنَّ مَنْ يتكلف ما ليس له، ويتكلم في غير فنِّه ـ قد يأتي بالعجائب ـ كما يقول ابن حجر رحمه الله ـ.

غير أن الأمر أوسع من ذلك؛ فإذا تكلم غير المختص فيما يستطيع أن يجول فيه دون تطاول، أو تعدٍّ للحدود، أو تناول لما ليس له قدرة عليه ـ فلا لوم عليه ولا تثريب.

أما إذا ارتقى مراقيَ لا طاقة له بها، وعام في أثباج بحار وهو لا يستطيع العوم في شطآنها ـ فذلك موضعُ اللوم، ومَحلُّ الذم.

وحينئذٍ حقَّ للمتخصص أن يوقف ذلك عند حده، ويرجعه إلى رشده.

**ومن مظاهر التعالي العلمي** أن تجد بَعْضَ مَنْ لديهم تخصصٌ في فَنٍّ من الفنون لا ينزلون إلى غيرهم في تقريب ذلك العلم، وتحبيبهم فيه.

بل تراهم يُغْرِبون إذا تكلموا فيه، ويشعرون غيرهم أن تلك الصناعة لا يحسنها أحدٌ سواهم.

واللائق بهم أن يخفِّفوا من غُلَوائهم، وأن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم، وأن يبذلوا العلم الذي وهبهم الله إياه بشيء من التواضع والإيضاح.

وأذكر أن بعض المتخصصين في أحد العلوم كان يكتب في ذلك العلم كتابة سهلة ممتنعة تقربه إلى أفهام العامة.

وكان يلاقي من بعض زملائه في التخصص لوماً وتثريباً؛ حيث يقولون له: لقد أفسدت علينا عِلْمَنا، وتَفَرُّدَنا فيه؛ حيث صار غيرنا ممن ليس من المتخصصين يحيط بذلك العلم خبراً.

**ومن مظاهر الغرور العلمي** احتقار بعض المتمحضين للبحث والدرس لبعض من يدعون إلى الله بطريق الوعظ، فتراهم ينظرون إليهم نظرة ازدراء، وفوقية، وإذا وصفوا الواحد من هؤلاء قالوا: هو واعظ، يقولونها على سبيل الذم والتنقُّص.

لا ريب أن ذلك خلل؛ فهل الوعظ إلا وَصْفٌ من أخص أوصاف القرآن؟ وهل يحرك النفوس أو غالب النفوس إلا الوعظ؟.

وهل الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ إلا سادات الواعظين؟

وهل محمد ﷺ إلا سيدهم جميعاً؟

نعم، يلام الواعظ إذا تحدث بما لا يعرف، أو تجاوز حدود الحكمة في الدعوة.

أما أن يذم الوعظ لذاته فذلك مظهر من مظاهر الغرور العلمي.

ولقد سرت تلك الآفة إلى كثيرين، وصار فئام من الناس من الكتاب أو المتكلمين إذا نصح، أو أبدى شيئاً من الوعظ ـ تبرأ من أن يكون واعظاً لا على سبيل التواضع، وأنه أقل من أن يكون واعظاً.

وإنما يقول ذلك على سبيل الكبر، وأن مقامه أكبر من أن يكون واعظاً.

ومما يدخل في ذلك القبيل ما تراه عند بعض من يحمل شهادة من دولة أوربية، أو أمريكية، أو غيرها من الدول الأجنبية؛ حيث تراه يزهو بنفسه، ويتعالى على من لا يحملون الشهادات من تلك الدول.

وفي المقابل ترى من يزدري أولئك بحجة أنهم درسوا في الغرب، وأنهم لا علم عندهم، ولا فضيلة لديهم.

ولا ريب أن ذلك خلل؛ ففضيلة الإنسان فيه، لا من خارج نفسه؛ والحكمة ضالة المؤمن، وليست الأماكن هي التي تعلي شأن أصحابها، إنما يعليهم ما هم عليه من الفضل، والإجادة، والإفادة.

**ومن مظاهر الغرور العلمي** ما تراه عند بعض من يتعاطى علماً دقيقاً؛ حيث تراه يرمي مَنْ سواه بقلة الفطنة، وأنهم لا يستطيعون الخوض في غمار ما هو بصدده، مع أن ذلك العلم قد لا يحتاج إليه الناس.

ومما يذكر في ذلك ما روي عن علامة الأندلس أبي الوليد الباجي رحمه الله أنه أتى إلى الشرق، ودرس العلوم، ولما رجع إلى الأندلس، قال له بعض أبناء الملوك: هل قرأت كتاب الأخلاق لأرسطو؟

فقال له أبو الوليد: أقرأت كتاب الأخلاق الذي أنزل على محمد؟ يريد: القرآن المجيد.

**ومن مظاهر الغرورِ العلميِّ** ادعاءُ بعض الناس وجَزْمُه بأنه لم يسبق إلى ذلك التحرير، أو الوقوف على تلك الفائدة، مع أن الأمر قد يكون بخلاف ذلك؛ فكم من فهم ترى أنك أبو عُذْرته وقد سبقك إليه متفهم، وقديماً قال عنترة: هل غادر الشعراء من متردم.

**فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً عرفتَ شيئاً وغابت عنك أشياء**

**ومن مظاهر ذلك** احتقار بعض الناس لتحريرات بعض المتأخرين؛ بحجة أن الفضل للأوائل، وأن المتأخرين لا يؤخذ منهم العلم.

ولا ريب أن ذلك تعالٍ وجهلٌ؛ فهل الدنيا ـ كما يقول ابن فارس ـ إلا أزمان، ولكل زمان رجال؟

وهل العلوم والأصول المحفوظة إلا خطرات الأوهام، ونتائج العقول؟

ومن قَصر الآداب على زمان معلوم، ووقفها على وقت محدود؟

ولم لا يَنْظُر الآخرُ مثلما نَظَرَ الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى مثل رأيه؟

وما تقول الفقهاء في زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الأحكام نازلة لم تخطر على بال مَنْ كان قبلهم؟

وفي مقابل ذلك تجد من لا يعتد بالأوائل بحجة أننا بحاجة إلى الجديد فحسب، ولو أفضى إلى التخلي عما شاده الأوائل.

ومن هنا تنشأ المعركة بين القديم والجديد.

وهي -بلا شك- معركة ما كان ينبغي لها أن تقوم؛ إذ الحكمة تقتضي -كما يقول ابن عاشور- أن نَعْمَدَ إلى ما شاده الأوائل فَنُهَذِّبَهُ ونزيده، وحاشا أن نَنْقُضَهُ أو نُبيدَه، فأولوا الأحلام الراجحة يأخذون بما يظهر من جديد صالح، ولا ينكثون أيديهم من قديم نافع.

ولئن كان عنترة قد قال:

**هل غادر الشعراء من متردم      أم هل عرفت الدار بعد توهُّم**

**فإن البارودي قال:**

كم غادر الشعراءُ من مُتَردَّم ولَرُبَّ تالٍ بذَّ شأوَ مُقَدَّمِ

في كل عصرٍ عبقريٌّ لايَنِي يَفْرِيْ الفَرِيَّ بكل قولٍ محكمِ

ومن مظاهر الغرور العلمي ما تراه عند بعض الطلاب؛ فما إن يَشْدُو قليلاً في العلم إلا تراه يسابق أستاذه وشيخه الكلام، أو تراه يباهي من دونه، أو يغلّط مَنْ فَوْقَهُ في العلم.

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

ومن مظاهر الغرور العلمي احتقار بعض الناس مَنْ يصغره في السن، فترى بعض من وُهِبَ علماً إذا رأى من دونه في السن على علم وفضل لم يعتد به، بل نظر إليه بازدراء، ولم تطاوعْه نفسه على الإفادة منه، أو الاعتراف بفضله.

وإذا أفاد منه لم ينزل من عليائه، فيعزو تلك الفائدة إليه.

ولا ريب أن ذلك نوع من الكبر؛ فالفضيلة توجد في الكبار والصغار، ومن نال شيئاً فهو جديرٌ به، قال البحتري:

لا تنظرن إلى الفياض في صغر في السنِّ وانظر إلى المجد الذي شادا

إن النجومَ نجومَ الليل أصغرُها في العين ابعدها في الجو إصعادا

وقال أبو الطيب:

فما الحداثةُ من حِلْمٍ بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

**ومن مظاهر الغرور العلمي** احتقار الفائدة، والاستنكاف عن قبول الاستدراك إذا كان حقاً، وصدر من صغير في السن أو العلم.

**ومن الغرور العلمي** غرور بعض الدول الصناعية بما وصلت إليه من التقدم التكنولوجي؛ حيث ترى بعضها تغالي في تعظيم نفسها، وترى أنها قادرة على مواجهة كل أزمة أو كارثة، وأنها بلغت من العلم ما لم يبلغه الأوائل، ولن يبلغه الأواخر، ولسان حالهم يقول كما قال الذين من قبلهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

وكم رأينا من آثار ذلك في الواقع؛ حيث تصيب كثيراً من البلدان قوارع أو تحلُّ قريباً من دارهم، فيقفون واجمين أمام تلك القوارع، معترفين بعجزهم، وضعفهم.

**وبالجملة** فإن الغرور خلقٌ ممقوت من أي أحد كائناً من كان.

وإن التعالي، والكبر، واحتقار الآخرين ـ أخلاق مرذولة تزري بأصحابها، وتُنزل من قيمتهم؛ وبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾.

**وإذا ما الشريفُ لم يتواضع للأخلاء فهو عين الوضيع**

وإنه ليكبر في عينك أن ترى إنساناً مبرزاً في أي فرع من فروع العلم، وهو على درجة من التواضع، واهتضام النفس.

**وأحسن مقرونين في عين ناظرِ جلالةُ قدرٍ في خمول تواضع**

ولقد أحسن أبو تمام في تصوير ذلك بقوله :

إذا احسن الأقوام ان يتطاولوا بلا منةٍ احسنت ان تتطولا
تعظّمت عن ذاك التعظم منهم واوصاك نُبْلُ القَدْرِ ان تَتَنبَّلا

التطاول : التعالي ، والتطوُّل : الإحسان.

وأحسن الحكيم العربي بقوله :

دنوت تواضعاً وبَعُدْت قدراً فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

## دعني فلأضرب عنقه

جاء في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوي، والزبير ابن العوام وكلنا فارس قال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ؛ فإن بها امرأةً من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين**».

فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب، فقالت: ما معنا كتاب، فأنخناها، فالتمسنا، فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ لَتُخْرِجِنَّ الكتاب، أو لَنُجَرِّدَنَّكِ، فلما رأت الجد أهوت إلى حُجزتها - وهي محتجزة بكساء - فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين؛ فَدَعْني؛ فلأضربْ عنقه.

فقال النبي ﷺ: «**ما حملك على ما صنعت**»؟.

قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ أردت أن يكون لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي، ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله، وماله.

فقال النبي ﷺ: «**صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً**».

فقال عمر: إنه قد خان الله، ورسوله، والمؤمنين، فدعني

فلأضرب عنقه.

فقال: «**أليس من أهل بدر؟**» فقال: «**لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم**».

فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

هذا الحديث يحتوي على غُرر من العلم، والذي يعنينا في هذا الصدد مقولة عمرﷺ للنبيﷺ: يا رسول الله: «فدعني فَلأضرب عنقه».

فههنا عمر أراد أن يظهر عزة الإسلام، وطَلَبَ الإذنَ من رسول اللهﷺ في ضرب عنق حاطب، ولكن رسول اللهﷺ ينظر للأمر من جميع جوانبه، ويسعى لالتماس العذر للمخطئ، ويتحامى إيقاع العقوبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لأنه الرحمة المهداة، ولأن الأمر راجع إليه دون غيره من البشر، ولأنه يتحمل تبعات أي قرار يتخذه.

أما عمرﷺ فمجرد مقترح يعلم أن ذلك الاقتراح لن تقوم له قائمة إلا بإذن رسول اللهﷺ وإذا أخذ به الرسولﷺ كان ذلك قراراً له لا لعمر.

وفي هذا إشارة إلى أن الرئيس والقائد ومن بيده أَمْرُ جماعةٍ من الناس صغرت أو كبرت ـ ينبغي له أن يستشعر تَحَمُّل مسؤوليةِ كلِّ قرار يتخذه حيال أي أمر من الأمور، ويجمل به ألا يستسلم لإملاءات

خاصته في كل شأن من شؤونه خصوصاً فيما يتعلق بإلحاق العقوبة بالآخرين.

بل عليه أن يتأنى، ويتروى، ويقلب الأمور ظهراً لبطن؛ حتى يُسفر له وجه الحق.

ولهذا لما تولى عمر الخلافة لم يضرب عنق أحدٍ من مخالفيه، أو الطاعنين فيه، ولم يكن يستجيب لكل ما يقترح عليه، وما ذاك إلا لأن الأمر آل إليه.

ولعله في قول الله -عز وجل-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ إشارةٌ إلى المعنى السابق.

والذي يدير النظر في حياة الناس يجد أن بعض مَنْ يتولى مسؤولية من المسؤوليات يخضع خضوعاً تاماً لكل ما يقترح عليه خصوصاً في شأن إيقاع العقوبة؛ إذ قد يُصَوَّر له أن ذلك الخطأ إنما وقع لتهاونِ مَنْ وقع فيه بشأنك، وأنك لو تركت العقوبة لتمادى الآخرون في التقصير؛ فما عليك إلا أن تحسم الأمر، وتنزل أقصى العقوبات في المخطئ؛ حتى تشرِّد به مَنْ خَلْفَه.

فإذا كان من بيده القرار ضعيفَ الرأي، قليلَ المخارج - أوشك أن يخبط خبطَ عشواء، ويركب متن عمياء.

وإذا كان ذا رأي سديد تأنَّى، وتريَّث، ونظر الأمر من جميع جوانبه، ثم اتخذ القرار الملائم.

ولا يعني ذلك أن يرُدَّ المدير أو الرئيس أو نحوهما كل ما يَرِدُ عليه من الاقتراحات في شأن العقوبات أو غيرها.

وإنما المقصود أن يستحضر أن القرار قرارُه، وأن له الغُنْمَ وعليه الغرم؛ فذلك يدعوه إلى مزيد من التريث، والتلبث، والروية.

## الكلمة المسؤولة

الألسنة مغارف العقول -كما يقال- وعقل المرء مخبوء تحت لسانه -كما جاء في الأمثال-.

والمتكلم، أو الكاتب الذي لا يدرك أبعاد كلمته جديرٌ بأن يقع في الخطل، وأن يصاحبه الظلم والزلل.

والكلمة المسؤولة هي التي يتأمل صاحبها فيها، وينظر في عواقب ما تفضي إليه؛ فلا تراه يلقيها جزافاً دون تدبر، أو رويَّة.

بل إنه ليتأمل فيما يقول؛ فإن رأى أن الكلام أجدى تكلم، وإن رأى السكوت أولى أحجم.

فالكلمة المسؤولة -إذاً- هي التي يضعها صاحبها في مكانها الصحيح مراعياً عامل الزمان والمكان، والحال الذي تقال فيه، والأشخاص الذين يتلقونها.

أما الذي يلقي الكلام على عواهنه دون مبالاة بما سيترتب عليه من مفسدة - فإن الإصلاح بعيدٌ منه، ولو كان يدعيه، ويسعى إليه سعيه.

والحاصل أن الكلمة المسؤولة هي الكلمة الراشدة التي تقع موقعها في قرارات النفس، ويكون لها أبلغ في الإصلاح.

وهي التي ينأى بها صاحبها عن الغمغمة، والتأويلات البعيدة.

وهي التي تراعي مشاعر الآخرين، فلا تنزل عليهم إلا كما ينزل الماء البارد على الكبد الحرى، أو كما يقع الدواء الناجع موقعه على الداء العياء فيكون شفاء وعافيةً -بإذن الله-.

وإنك لتعجب، ويذهب بك العجب كل مذهب من أناس يتكلمون في أمور كبيرة، أو يبدون آراءهم في مسائل عويصة دون أن يراعوا المآلات، ودون أن تكون لديهم الأهلية الكافية في خوض غمار تلك اللجج؛ فإذا سكنت ريحهم أدركوا مدى الشرخ الذي أحدثوه، وعظم الشر الذي جَرُّوه، سواء على أنفسهم أو على غيرهم.

وهذا من أعظم ما يؤكد لنا عظم هذا الأمر، وضرورة استشعاره.

## المراهقة العلمية

المراهقة ـ عموماً ـ مصطلح يعني الطيش، والنزق، والخفة، وقلة الرزانة، وارتكاب بعض ما يخل بالمروءة، وذلك من قِبَل بعض الناس في مرحلة مراهقتهم ـأي: المرحلة التي تنقلهم من الطفولة إلى الرجولةـ.

وهذا أمر يمر به أكثر الناس، ولهذا يعجب ربنا من شاب ليست له صبوة.

غير أن تلك الصبوة قد تستمر مع بعض الناس فلا يزيده مَرُّ الأيام إلا عتواً ونفوراً.

وبعضهم قد تتأخر مراهقته فلا تطرأ عليه إلا بعد أن يجاوز مرحلة المراهقة، أو يطعن في السن؛ فكأنه يقضي ما فاته من الطيش إبان المراهقة، والقضاء يحكي الأداء كما يقول الفقهاء!!.

وربما تطول مدة مراهقته، أو تستمر معه طول العمر، وقديماً قيل: ما أشد فطام الكبير.

والحديث ههنا ليس عن هذا النوع من المراهقة، وإنما هو حول نوع آخر منها ألا وهو المراهقة العلمية؛ حيث تلحظ على بعض المنتسبين للعلم نوعَ مراهقة، فتراه يُخَطِّئ ويُصَوِّب من هو أكبر منه،

وتراه يعتد بآرائه أكثر من اللازم، ويرمي مخالفيه بالجهل، وقلة البضاعة.

ومن هذا القبيل ما تراه عند بعض المتسببين للعلم من الانحراف عن طريق العلم، إما زهداً بالعلم، أو استطالة لطريقه، أو رغبة في التنقل، أو أن يستهويه بريق الشهرة، وسراب العلوم التي تزري بالشريعة وعلمها؛ فتراه بعد ذلك وقد عرَّى أفراس الصبا ورواحله، وصار كلاًّ بعد أن كان كلأً.

## نظرية الطبلون

الطبلون ـكما تسميه العامةـ هو عداد السرعة للمركبات، والطائرات، والسفن، والبواخر؛ فهو الذي تقاس به السرعة، فبعض ما ذكر سرعته فائقة جداً، وبعضها متوسط السرعة، وبعضها بطيء كالمركبات.

بل إنه النوع منهن متفاوت في ذلك.

فالسيارات مثلاً متفاوتة السرعة؛ ففيها السريع، وفيها متوسط السرعة، وفيها البطيء جداً كبعض السيارات التي تستعمل لرصف الطرق؛ فمهما حاولت أن تزيد من سرعتها فلن تستطيع؛ لأن هذه هي طاقتها؛ فلهذا لا تتوقع منها مزيد سرعة.

ونظرية الطبلون يمكن تطبيقها إلى حدٍّ ما في التعامل مع البشر؛ فذلك مما يريح كثيراً، وينأى بمن يأخذ بهذه النظرية عن كثير من العتاب، واللوم، وأكل بعضه بعضاً.

وتوضيح ذلك أن بعض الناس سريع النجدة، عالي الهمة، كامل المروءة؛ فما إن يوكل إليه عمل، أو يسمع عن أمرٍ من الأمور يحتاج إلى مساعفة وإنجاد إلا وتراه يقبل إليه إقبال البرق الخاطف.

ولا تتفق معه اتفاقاً على عمل إلا وتجده سمحاً بذاك مبيناً.

وفي مقابل ذلك من تجده ثاكل المروءة، بليد الطبع، قليل الإحساس؛ فلا ينهض إلى مساعدة، أو معروف، وإذا أراد القيام بشيء من ذلك قام كالمغشي عليه من الموت.

ثم إن المعروف عند الأول يزكو ولو كان قليلاً، وأما الثاني فمهما أسدي إليه لا تجده إلا جاحداً كنوداً.

وبين هذين مراتب ودرجات تتفاوت بتفاوت الهمم والطبائع، والاستعدادات النفسية، وآثار التربية، والتهذيب.

وقس على هذه النبذة الكثير من الأمور.

وكنت كثيراً ما أتجاذب أطراف الحديث مع بعض الأحبة حول هذا الشأن، فترى منهم انزعاجاً لما يرونه من التماوت والتباطؤ من بعض الناس في النائبات أو الواجبات التي يجب عليهم القيام بها خصوصاً إذا قارنوا أولئك ببعض أصحابهم وزملائهم، ونظرائهم في السن أو العمل ممن هم على درجة من الهمة والمروءة.

وربما عَزَوا ذلك إلى قلة الاهتمام من أولئك، أو إلى احتقارهم للآخرين، أو نحو ذلك؛ فكان مما أعزيهم به أن أحيلهم إلى (نظرية الطبلون) الآنفة الذكر، وأقول لهم ولنفسي: هونوا عليكم؛ فهذا هو منتهى ذوقهم ومروءتهم؛ وليسوا بالضرورة قاصدين إهانتكم، أو

التقليل من شأنكم، وإنما هي طبائعهم الباردة التي استرسلوا معها؛ فكان ذلك الحديث يعلل بعض الأصحاب، ويطفئ عنهم بعض ما يجدونه من الغيظ على أولئك المتبلدين؛ فصارت (نظرية الطبلون) مثار حديثنا في كثير من الأحيان، وأصبحت تُقْصِرنا عن كثير من الإثارة والغضب دون أن يعني ذلك ترك المحاسبة للمخطئ، ومحاولة الإصلاح للمعوج، وإنما المقصود ألا تؤثر تلك الأحوال على مشاعرنا، وسلوكنا بالسلب.

وبعد فهذه هي (نظرية الطبلون) التي ربما تخفف عنك بعض الهم، وتلطف شيئاً من هجير الحياة، ولفحها.

## تساهيل

هذه الكلمة جمع كلمة (تسهيل) مثل تكليف وتكاليف، ولعل الأفصح أن يقال: تسهيلات.

هذه الكلمة نسمعها كثيراً من الناس خصوصاً إذا تيسرت لهم أمور شاقة، كرحلة الحج عموماً، أو رمي الجمار، أو الطواف، أو نحو ذلك مما يكون في الحج.

وتقال -أيضاً- عند تيسر أي أمر من الأمور، أو إذا تيسر أمر لم يكن بالحسبان.

ولا ريب أن الله -عز وجل- لطيف بعباده، وأنه ييسر لهم أمورهم، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾.

وتيسير الأمور أمر محبوب للنفس، ولكنه لا يعني الاستكانة، والخمول، وترك الأخذ بالأسباب؛ فمراعاة السنن الإلهية مطلوب شرعاً وعقلاً؛ فتلك السنن لا تحابي أحداً كائناً من كان، والتفريط في الأخذ بها نقص وإخلال، وقد يودي بالإنسان إلى المعاطب، أو في الأقل إلى تعطيل المصالح.

والذي يلاحظ في هذا الشأن أن بعض الناس يُقَصِّر في الأخذ بالأسباب، ويسير في أموره سيرَ غير ذي الرشد؛ فإذا سافر إلى مكانٍ ما، أو أراد القيام بعمل من الأعمال ـ لم يقم بما يلزمه القيام به من ضبط المواعيد، وأخذ الأهبة، وحَزْم الأمر.

بل تراه مفرطاً في ذلك أشد التفريط، تاركاً الأمر للمفاجآت، معتمداً على تيسير الله وتسهيله ـكما يزعمـ ناسياً أو متناسياً، أو غير عالم أن سنن الله لا تحابي أحداً، وأن الأخذ بالأسباب من أخص خصائص الإيمان بالقدر، ومن أعظم أركان التوكل على رب الأرباب ومسبب الأسباب.

مثال ذلك ما تراه عند بعض الناس في السفر؛ فقد يكون على موعد مهم، ويريد السفر عبر الطائرة؛ فلا تراه يبادر إلى حجز التذاكر، ولا يبالي بموعد الرحلة؛ فإذا قرب وقتها بدأ القلق يساوره، وصار يتصل بفلان وفلان بحثاً عن مخرج لتلك الأزمة؛ فإذا حصل على مراده قال: تساهيل.

وإلا فالأغلب أنه يعاني هو ومن معه أشد المعاناة، ويبذل ماء وجهه عند أمور كان في غنى عنها.

ولو أنه استعد لذلك بالوقت الكافي لسلم من ذلك الحرج.

نعم قد تمر بالإنسان حالات مفاجئة ، أو يقع في خلل غير مقصود في نحو موعد سفر أو غيره؛ فههنا لا يلام على ما يحصل من خطأ ، ولا تثريب عليه إن بحث عن مخرج؛ فالخطأ وارد ، والأمور تحكم حكمها في بعض الأحيان؛ فإذا رغب من غيره مساعدته في حل أزمته الحاضرة فلا بأس في ذلك؛ فللمروءات وقتها الذي لا ينبغي التخلف عنه.

أما أن يكون ذلك دأب الإنسان في كل أحواله ـ فذلك هو الداء الذي أعيا من يداويه.

## لذة العطاء

كثير من الناس لا يشعر بلذة العطاء إنما يشعر بلذة الأخذ ، وكثير منهم يرى أن اللذة لا تكون إلا بالأخذ لا بالعطاء .

وربما خطر في بال كثيرين أن العطاء يعتريه ما يعتريه من التكَرُّه ومغالبة الطبع ، وحب الاستئثار ؛ فلا يكون معه ـ والحالة هذه ـ لذة أو فرح.

بخلاف الأخذ ؛ حيث يصحبه نشوة ، وفرحة ، وربما صحبه تنفيس كربة.

وكل ذلك واقع صحيح ، غير أن اللذة الكبرى ، والسعادة العظمى ، إنما هي بالعطاء دون الأخذ ، وهي التي يشعر بها من تلذ لهم المروءة.

ولهذا يرى بعض نقاد الأدب الأوائل أن أمدح بيت قالته العرب هو قول زهير :

**تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي انت سائله**

واعترض بعضهم على ذلك بأن المعطي في هذا البيت يفرح بالعطاء كفرحه بالأخذ ، وإنما الشأن كل الشأن بمن يكون فرحه بالعطاء أكثر من فرحه بالأخذ ، ورأوا أن بيت زهير لا يبلغ شأو بيت أبى نوفل عمر بن محمد الثقفي الذي يقول فيه :

**ولئن فَرِحْتَ بما يُنيلك إنه ... لبما ينالك من نداهُ أفرح**

وبيت أبي تمام الذي يقول فيه :

**أسائلَ نصرٍ لا تسله فإنه    أحنُّ إلى الإرفاد منك إلى الرفد**

وهذا هو السر في اهتزاز ذوي المروءات للندى ، وهذا هو الذي حدا بالحكيم العربي أن يقول : « الكريم لا تحنكه التجارب » .

وحدا بالحكيم الآخر أن يقول :

**كيف يسطيع حِفْظَ ما جمعت كفاه مَنْ ذاق لذةَ الإنفاقِ**

وكان من أمدح أبيات الشعر قول بشار بن برد في عقبة بن سلم :

**إنما لذةُ الجواد ابنِ سَلْمٍ    في عطاء ومركب ولقاء**

**ليس يعطيك للرجاء ولا الخوفِ    ولكن يلذُّ طعم العطاء**

وقول الآخر في ممدوح له :

**ويكاد من فرط السخاء بنانه    حبَّ العطاء يقول : هل من سائل**

يقال هذا لأن نفراً من الناس لا يجود بالمال على والديه أو بعض من لهم حقٌ عليه ؛ بحجة أن أولئك ينفقون المال على بعض المحتاجين ، أو يتكرمون بجزء منه على بعض الأطفال ؛ فيقول : أنا أريد من والدي أو مَنْ أجودُ عليه أن يمسك بالمال ، ويصرفه في حاجته ؛ فهذا سبب من أسباب منع بعضِ الناسِ مالَهُ .

وما علم ذلك أن بعض الناس إنما يجد لذته ، وفرحه بالعطاء .

والحاصل أن اللذة الحقيقية إنما هي بالعطاء دون الأخذ ، وهذا آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق ـ كما يقول الرافعي ـ.

وإذا اجتمع مع ذلك كله الفرح بنعمة الإحسان إلى الآخرين ، واحتساب الثواب عند الله ، والثقة بما عنده ـ عز وجل ـ كان نوراً على نور ، والله يؤتي فضله من يشاء.

## ليس بالضرورة

ليس بالضرورة أن يكون لك رأي في كل نازلة ، أو مسألة ، أو مشكلة .

وإذا كان لك رأى في شيء من ذلك فليس بالضرورة أن تبديه ، وإذا أردت إبداءه فليس بالضرورة أن تبديه لكل أحد أو في كل مناسبة.

وإذا أبديته فليس بالضرورة أن تتشنج في إبدائه ، أو تتعصب له ، أو تظن أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وإذا خالفك الرأي أحدٌ من الناس فليس بالضرورة أن يكون ذلك المخالف عدواً ، أو متربصاً ، أو حاسداً .

وليس بالضرورة إذا انتقدت أحداً من الناس أن تسعى إلى تجريحه ، وإسقاطه ، و الإساءة إليه ، وتجريده من كل حسنة .

وليس بالضرورة إذا اختلفت مع أحد أن تعاديه ، وتدعو إلى عداوته ، وتشهِّر به قَدْرَ ما تستطيع .

وليس بالضرورة إذا كان بينك وبين أحد من الناس خصومة أن تنتقل هذه الخصومة إلى كلِّ مَنْ يتصل به أمرك حاملاً شعار : «معي أو ضدي» .

بل يكفى أن تنحصر الخصومة بين أصحابها قدر المستطاع .

وليس بالضرورة أن إذا كتبت مقالة ، أو قصيدة أن تطول كلماتها ، أو صفحاتها ، أو أبياتها ؛ بل يكفى في ذلك وصول الفكرة ؛ فإذا وصلت بأقل كلفة و أقصر عبارة فذاك .

وليس بالضرورة إذا تكلمت ، أو داخلت ، أو أبديت وجهة نظر أن تتزيَّد بالكلام ؛ فتثقل على السامعين أو الحاضرين دون مسوغ لذلك طالما أن الغاية من الكلام تحققت ؛ ولأن يقال : «ليته واصل خير من أن يقال : ليته سكت» .

ولو أخذ هذا الشعارُ حظَّه من نفوس كثيرين لسلمنا من تخمة التكرار و الإثقال ، وصداع الإطالة ، الإملال .

وليس بالضرورة أن تكون المتصدرَ في كل مجلس ، السابقَ لكل حديث ، ولو بلغت ما بلغت من العلم و الثقافة ؛ فليس كلُّ جوٍ جوَّك ، ولا كل يومٍ يومَك .

وليس بالضرورة إذا قَصَّرت في يومٍ ما ، أو قصرت في حق أحد ممن لهم حق عليك أن تجعل ذلك التقصير ذريعة لاستمراء التقصير ، وترك الإحسان .

وليس بالضرورة أنك إذا كرهت أحداً أن تخبره بذلك بحجة أنك صريح ، بل الحكمة تقتضي أن تحتفظ بذلك لنفسك ، فـ: ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً** ﴾ .

أما إذا أحببت أحداً فإنه يحسن بك أن تخبره بذلك؛ فالحب سعة ، والكراهية ضيق ، و« **إذا أحب أحدكم أخاه فلْيُخْبِرْه أنه يحبه** » .

## المعارك الصغيرة

قد يوهب بعض الناس نبوغاً، وذكاءًا، وألمعية.

وقد يكون ذا قدرات فائقة، ومواهب متعددة، وإمكانات واسعة؛ فيكون بذلك مؤهلاً للقيام بأعمال جليلة من شأنها أن تنهض به، وبمن له صلة بهم من نحو قرابة، أو زمالة، أو ما جرى مجرى ذلك.

بل لقد يكون مهيئاً لأن يكون له أثرٌ أوسعُ جولةً، وأخلدُ ذكراً.

ولكن تلك الخلال، والمهيئات، والقدرات قد تذهب أدراج الرياح؛ فلا يكون لها عين أو أثر، بل قد تكون وبالاً على صاحبها.

والسبب في ذلك أمور لعل من أبرزها ضيقَ النَّفْس لدى ذلك الإنسان؛ حيث يبتلى بسرعة غضبه، واستسلامه لاستفزازات يسيرة؛ فَيُقْضَى عليه أن يعيش معارك صغيرة جداً سواء مع بعض أقربائه، أو زملائه، أو غيرهم؛ فينزل بذلك إلى دَرْكٍ سحيق، وتضيع عليه أوقات هو بأمسِّ الحاجة إليها، ويفوته الترقي في كمالات كان جديراً بها؛ ذلك أن تلك المعارك الصغيرة تنهكه أيَّما إنهاك، فَتَشُلُّ تفكيره، وتقتل إبداعه، وتشغله أيَّما إشغال عمَّا ينفعه.

ولو أنه غضَّ الطرف عن تلك المعارك، أو أعطاها التفاتة يسيرة لتطفئ ثائرتها ـ لكان خيراً له في عاجله، وأحسن تأويلاً في عاقبته.

والحاصل أن العاقل الذي يعرف شرف زمانه، وما ينبغي له من الاشتغال بما ينفعه ـ هو الذي ينأى بنفسه قدر الإمكان عن إضاعة وقته في معارك صغيرة، أو وهمية؛ فتلك المعارك كلٌّ يجيدها؛ فهي دأب الخاملين البطالين الذين يشغلون بها ذوي النفوس الكبيرة، والأعمال الجليلة، وقديماً قالت العرب: «ويلٌ للشجيِّ من الخليِّ».

## الهدايا الربانية

ما أكثر الهدايا الربانية ، وما أجل الهبات التي يكرمنا بها ربنا -جل في علاه - ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ .

وهذه النعم لا تخفى عن كثير من الناس الذين يتقلبون فيها ، ويتفيؤون ظلالها صباح مساء.

ولكنْ هناك نوعٌ من الهدايا الربانية قد تمر علينا ، ونحن عنها غافلون ، ألا وهى تلك المنح التي تكون في طي المحن ؛ إذ قد يبتلينا ربنا - تبارك وتعالى - ببعض البلايا ، والنوازل ، من فقد محبوب ، أو لقاء مكروه ،أو تعكُّس مقصد ، أو خسارة مال ، أو بنوع مرض، أو ما جرى مجرى ذلك .

فمثل هذه البلايا قد نراها بادي الرأي ، فنكره و وقوعها ، وربما نتسخطها ، ونتبرم منها.

ولو نظرنا إليها بعين البصيرة لأدركنا أنها تربية ربانية ، وملاحظة إلهية ، نتنبه من خلالها إلى مواطن الخلل ، ونصلح من جرائها ما فسد من العمل ، فتكون نعمة في ظل نقمة ، ومنحة في ظل محنة.

**كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنه**

## سعة الصدر على المخالف

الإسلام -كما هو معلوم- هو الدين الخاتم، وهو رسالة الله الأخيرة للبشرية، فلا غرو أن تكون تلك الرسالة شاملة عامة صالحة لكل زمان ومكان وأمة.

وأحكام الإسلام لم تختص بتعامل المسلمين فيما بينهم، بل هي عامة تُظِل جميع الناس على اختلاف أديانهم؛ ففي شمول الإسلام وعمومه ما يبيِّن كيفيه التعامل مع كافة الطبقات من أهل الإسلام وغيرهم.

وهذا يعنى أن الإسلام دين عملي، واقعي، وليس نظرياتٍ مُغْرِقةً في المثالية التي لا تتلاءم مع واقع الحياة والناس.

والله -عز وجل- خلق الناس، وقرر أن منهم كافراً، ومنهم مؤمناً.

وأمر-عز وجل- بدعوة الناس إلى الهدى، ولكن لم يُكَلِّف الداعين بإدخال الناس في الدين الحق ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ الشورى: ٤٨.

ومن هنا فإن سنة الاختلاف بين الناس قائمة مقررة في القرآن: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ هود.

ولا يعنى ذلك إقرارَ الباطل، ولا قبولَ كلِّ المذاهب أو تسويغَها، أو الرضا بها، أو تركَ الإنكارِ عليها، وبيانِ زيفها، ودعوتِها إلى الحق.

وإنما المطلوبُ في ذلك حسنُ التعامل مع تلك الاختلافات، واتباع هدي الإسلام بالحوار مع المخالف، والأخذ -في الأصل- بمبدأ الرفق واللين؛ فجماع آداب المعاملة في الدين يرجع إلى الدعوة للدين بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن في قالب التسامح بقدر الإمكان تسامحاً لا ينتقض شيئاً من عرى الإسلام، ولا يُجرِّؤُ أحداً على حرمته وسلطانه.

ثم إن التسامح في الإسلام وليدُ إصلاحِ التفكيرِ ومكارمِ الأخلاق اللذين هما من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام -كما يقول ابن عاشور-.

وهذا التسامح ناشئ من صحة الاعتقاد الذي يأمر صاحبه بكل خير، وينأى به عن كل شر، ويضبط عواطفه، ويجتث من نفسه كافة الرعونات.

ولا ريب أن العقل السالم من الشهوات والشبهات يسوق صاحبه إلى العقائد الحقة، ويكسبه الثقةَ بعقيدته، والأمنَ من أن يزلزلها مخالف.

غير أنه ربما أحس من ضلال مخالفه بإحساس يَضيقُ به صدره، وتمتلئ منه نفسه تعجباً من قله اهتداء المخالفين إلى العقيدة الحقة، وكيف يغيب عنهم ما يبدو له هو واضحاً بيناً؛ فههنا يجيء عملُ مكارم الأخلاق، فيكون من النشأة على مكارم الأخلاق، ومن

التأدب بآداب الشرع الحكيم مَعْدلٌ لذلك الحرج، وشارحٌ لذلك الصدرِ مِن الضِّيق؛ فيتدرب بذلك على تلقي مخالفات المخالفين بنفس مطمئنة، وصدر رحب، ولسان طلْق؛ لإقامة الحجة، والهدى إلى المحجة دون ضجر ولا سآمة.

وقد جاءت وصايا الإسلام مثيرةً لهذين الأصلين، وهما أصل الثقة بصحة العقيدة، وأصل مكارم الأخلاق في نفوس أبنائه، فأما إثارة أصل الثقة بصحة العقيدة دون التفات لعقيدة الآخرين فبمثل قول الله -تعالى-: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ النمل: ٧٩-٨٠.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة: ١٠٥.

وأما إثارة أصل مكارم الأخلاق فبمثل قوله -تعالى-: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ الكهف: ٦.

ومعنى باخع: مهلك.

ولا ريب أن إثارة هذا الأصل تُوَسِّع الصدر، وتوطِّن النفس على احتمال ما يكون من المخالف.

## علاج النفوس

للنفوس أدواء، ولكل داء دواء؛ فإذا وافق الدواء محلاً قابلاً أفاد، وأنجح، يستوي في ذلك الأمراض الحسية والمعنوية.

والحديث ههنا عن الأمراض المعنوية وعلاجها؛ فعلاجها يختلف من حالٍ إلى حالٍ، ومن شخص إلى آخر.

وكما أن الطبيب الماهر في علاج الأدواء الحسية يفلح في مداواتها ما لا يفلح غيره ممن هو دونه ـ فكذلك الطبيب الخبير بأدواء النفوس وعوارضها.

ولا ريب أن الشريعة جاءت بما يكفل سعادة الدنيا والآخرة، وأن فيها الشفاءَ من أمراض الأخلاق والقلوب.

كما أنها أرشدت إلى سبيل الحكمة في ذلك.

ومن الحكمة أن يُدواى كلُّ مريضٍ بما يلائمه؛ فمن الناس من يناسبه العلاج بالعقل، والمنطق، والحجة، والبرهان.

ومنهم من يلائمه العلاج بالعاطفة، والحب، والدخول إلى حنايا قلبه من ذلك الباب.

ومنهم من يكون علاجه بالمال، ومنهم من يكون بالإكرام، والهدية، والملاطفة.

بل ومنهم من يكون بالإعراض عنه، وتَرْكِهِ وحالَه.

ولا ريب أن وضع تلك الأمور في إطارها الصحيح يحتاج إلى كياسة، وفطنة، وخبرة، وصفاء فطرة، ودقة ملاحظة.

ومن مَلَك زمام ذلك الأمر أمكنه ـ بإذن الله ـ أن يلُمَّ شعث القلوب المتفرقة، وأن يداوي كلوم النفوس الشرسة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

## مفهوم القرب من الله

القرب من الله ـعز وجل ـ من أجَلِّ النعم بل أجلُّها على الإطلاق ، وهذا القرب قد يحسن تفسيره بمعنيين ، وكل واحد منهما لا يَقِلُّ عن الآخر من حيث الأهمية وكونُه يُفضي إلى السعادة ، وينأى بصاحبه عن دَرْك الشقاوة.

**أما المعنى الأول** فهو القرب بمعنى التقرب إلى الله بالعبادة، والإخلاص ، أو بمزيد من ذلك ، بحيث يتلذذ الإنسان بالتقرب إلى الله ، وإيثار محبته ـ عز وجل ـ ونحو ذلك .

**وأما المعنى الثاني** فهو القرب من الله بمعرفته، أي بمعرفة الطريق الموصل إليه ؛ فيصبح العبد بذلك قريبًا من الله، بحيث إذا ابتعد عن طاعة ربه، وتطوحت به نفسه الأمارة بالسوء، ثم أراد القرب من الله لاحت له أعلام الطريق واضحة حاله كحال المسافر الذي يعرف الجادة فلا ينحرف بعيداً عنها؛ فإذا انحرف عنها قليلاً تيسرت له العودة إليها .

وكذلك الحال بالنسبة لمن هو عالمٌ بالله ، وبالطريق الموصلة إلى مراضيه ؛ فإنه سرعان ما يعود إليه كلما ابتعد عنه بخلاف الذي لا يعرف ربه ، أو كان جاهلاً بالطريق الموصلة إليه ، أو لم تكن له

الدراية التامة بتلك الطريق ؛ فإنه يتخبط في ديجور الظلمة ، ولا يكاد يخرج منها .

ولهذا كان من دعاء المؤمنين في كل ركعة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

والحاصل أن القرب من الله بشتى معاني القرب أمارةُ سعادةٍ ، وعلامةُ توفيقٍ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

## ثبات الود

يتحدث كتاب التراجم والسير عن صفات بعض مَنْ يترجمون لهم، فيذكرون صفاتٍ منقبيةً كثيرةً.

ومن جملة المناقب خصلةٌ قد تمر على الواحد منها دون أن يلقي لها بالاً.

والحقيقة أنها تستحق الوقوف عندها، واستحضار أن الذي يتصف بها جدير بالثناء، والإجلال؛ لأن اتصافه بتلك الخصلة دليلٌ على حسن السيرة، وكرم العشيرة، وكِبَرِ النفس، وكمالِ العقل، ورعايةِ التذمم، واحتمال المكاره، وترك الاستسلام للأحوال العارضة.

تلكم الخصلة هي (ثبات الود).

والذي يدير النظر في حال كثير من الصداقات يرى أنها لا تدوم طويلاً؛ إذ أكثرها لا يلبث أياماً، أو شهوراً، أو سنين قليلة.

أما العلاقات والصداقات التي تستمر طويلاً فهي شبه نادرة؛ إذ قلما تجد علاقات تصفو، أو تستمر سنوات طويلة، أو تمتد إلى الموت.

ولهذا كان من ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه.

ولا يُحْكِم هذه الخصلة إلا مَنْ قوي إيمانُه، وزكت نفسُه، وكملت مروءته؛ لأن طول المعاشرة، والمجالسة قد يفضي إلى الملامة، وقديماً قيل: لا مروءة لملول.

وقد يفضي إلى بعض التنافس، والتناحر، والتلاحي، والتحاقق، ووجود الجفوة العارضة، وكثرة العتاب وقلة تحمله.

فإذا لم يكن للمرء إيمانٌ يردَعُه، وتقوى تزمُّه، ومروءة تحمله على التعقل وتدبر العواقب ـ كانت تلك العلاقة على شفا جرف هارٍ؛ فيوشك أن تنهار، فتصبح أثراً بعد عين.

أما إذا كان الشخص ذا إيمان، وعقل، ومروءة كان حرياً بأن تدوم له صداقاته، وأن يحتفظ بها، وينأى بها عن التداعي.

وهذا ما يفسر لنا طولَ العلاقات وقصرها بين الناس؛ فهم درجات في ثبات الود، وتقلبه، وتلونه.

وهذا ما شكا منه أسامة بن منقذ بقوله:

وما اشكُو تلَوُّنَ اهلِ وُدّي ... ولو اجْدَتْ شَكِيَّتُهم شكوْتُ

مَلِلْتُ عتابَهم ويئستُ منهُم ... فما ارجوهُمُ فيمن رَجوتُ

إذا ادْمَتْ قَوارِصُهُم فؤادي ... كَظَمتُ على أذَاهم وانطويْتُ

ورُحتُ عليهِمُ طَلْقَ المُحَيَّا ... كأنّي ما سمِعتُ ولا رايتُ

تجنَّوْا لِي ذُنوباً ما جنتْها يَداي ولا أَمرتُ ولا نَهيتُ
ولا واللّهِ ما اضمرتُ غدْراً كما قد أظهَروهُ ولا نَويتُ
ويومُ الحشرِ موعدُنا وتَبدُو صحيفةُ ما جنَوْهُ وما جنيتُ

وهذا ما يؤكد على ضرورة التمسك بالصداقات وخاصة الفاضلة منها، والعض عليها بالنواجذ، والتثنية عليها بالخناصر.

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقاتِ الذخائرُ

ومما يعين على ذلك التماس المعاذير، وسعة الأفق، وترك الاستسلام للعوارض النفسية الحاضرة.

ومن ذلك ألا يتغير الإنسان على أصحابه ومحبيه إذا نال كرامة من غنىً، أو منصب، أو جاه، أو نحو ذلك.

وأن يعذر ـ في الوقت نفسه ـ من تغير عليه بسبب تلك الأمور.

.............................. ومن ذا الذي يا عزَّ لا يتغير
وكل ولاية لا بد يوماً مغيرة الصديق على الصديق

ومن ذلك أن يحافظ الإنسان على القيام بحقوق الأحبة من نحو السلام، وطريقته، ومن نحو التواصل بأي وسيلة كانت.

ومن ذلك أن يبادر إلى الاعتذار، وتحمل العتاب إن هو قَصَّرَ في شيء من الحقوق.

ومن ذلك معرفةُ طبائع نفوس الأحبة والمعارف، ومعاملتهم بهذا المقتضى.

فهذه الأمور وما جرى مجراها كفيلة بثبات الود، والمحافظة على العلاقات.

والتفريط فيها مؤذنٌ بقطع المودات، وإحلال الجفوة أو العداوات، وأعجز الناس من عجز اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ظفر بهم ثم فرط فيهم.

## فقه السكينة

السكينة مصطلح شرعي، ومنزلة من منازل العبودية، ومطلب يبتغيه كل مريد للأمن، والراحة.

وأصل السكينة -كما يقول ابن القيم- الطمأنينة، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف؛ فلا ينزعج قلبه بعد ذلك لما يَرِدُ عليه، ويوجب له زيادةَ الإيمانِ، وقوةَ اليقين، والثبات.

والسكينة -كذلك- تعني هدوء البال، وسكون الجوارح، وحسن التلقي للأفراح والأتراح؛ فصاحب السكينة لا تستفزه دهشة الفرح، ولا تستثيره سورة الغضب.

بل هو ملازم للاعتدال في شتى أحواله، فإن تكن السراء فعنده الشكر، وإن تكن الضراء فعنده الصبر -كما يقول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله-.

وممن عبر عن ذلك المعنى التابعيُّ الجليلُ عبدُالعزيز بنُ زارة الكلابيُّ بقوله:

قد عشت في الدهر أطواراً على طُرُقٍ ... شتى فصادفت منها اللّيْنَ والبَشِعا

كُلاًّ بلوتُ فلا النعماءُ تبطرني ... ولا تخشّعت من لأوائها جزعا

لا يملأ الهولُ قلبي قبل وقعته ولا اضيق به ذرعاً إذا وقعا

وللسكينة ذكر في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فلقد ذكر الله -عز وجل- السكينة في كتابه في ستة مواضع، وهي قوله - تعالى -: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ البقرة: ٢٤٨.

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ٢٦.

وقوله - عز وجل -: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة: ٤٠.

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ الفتح: ٤.

وقوله: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ الفتح: ١٨.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الفتح:٢٦.

والذي يلاحظ ـ كما يقول ابن القيم ـ أن الله ـ عز وجل ـ أخبر عن إنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة؛ إذ هو وصاحبه في الغار، والعدو فوق رأسيهما، ولو نظر أحدهم إلى ما تحت قدمه لرآهما، وكيوم حنين حين ولّو مدبرين من شدة بأس الكفار، وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحتملها النفوس.

ولهذه الآيات التي ذُكِرَتْ تأثير عجيب في حصول السكينة على من يقرؤها أو تقرأ عليه.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة.

وقد جربت أنا ـ أيضاً ـ هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه؛ فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته» .اهـ

يقول أبو إسماعيل الهروي رحمه الله عن هذه السكينة: «السكينة: هي التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، وهي شيء يجمع قوةً ورُوحاً يسكن إليه الخائف، ويتسلى به الحزين والضَجِر، ويسكن إليه العَصِيُّ، والجريء، والأبي».

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على كلام الهروي: «وهذا من عيون كلامه، وغرره الذي تثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب».

ثم إن السنة المطهرة حافلة بذكر السكينة، فحثت عليها في المشي إلى الصلاة، وأمرت بها عند الدفع من عرفات إلى المزدلفة، فأمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلزوم السكينة، وأخبر بأن البر ليس بالإيضاع.

ولقد أفاض الإمام ابن القيم رحمه الله في الحديث عن السكينة في كتابه العظيم مدارج السالكين، فعدها من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، وفصَّل القول فيها، وذكر ثمراتها، ودرجاتها.

**هذا وإن هناك جوانب من السكينة يحسن التفطُّن لها**، والتنبيه عليها؛ لمسيس الحاجة إليها؛ لأننا عرضة في كل يوم لما يسر أو يسوء.

فنحن ـ إذاً ـ بحاجة إلى هذا الفقهِ فقهِ السكينة قولاً وعملاً.

والذي يلحظ في حياتنا اليومية أن السكينة تكاد تفقد في كثير من الأحيان، وفيما يلي ذكر لبعض مظاهر السكينة التي نحتاج إليها:

١ـ **السكينة في نقل الأخبار المزعجة وتلقيها**: فالذي يلحظ على بعض الناس أنه إذا أراد نَقْلَ خبرٍ مُزعج إلى أحد من الناس كخبر وفاة عزيز، أو حصول خسارة فادحة أنه يلقي الخبر هكذا دون تهيئة أو مقدمات أو نظر في حال المتلقي وما يلائمه؛ فيحصل من جراء ذلك مصائب أخرى.

وأذكر أن أحدَ الناس توفيت خالة له، وكان مولعاً بأخبار المصائب ونقلها، فقال له إخوانه ـوكانوا يعلمون أنه لن يخبر والدتهم بهذا الخبر سواه ـ: هيئ والدتنا، وتدرَّج في إيصال الخبر إليها.

فقال: حسناً، ثم ذهب إلى أمه، وقال لها: يا أمي! إن خالتي مريضة، وسيصلى عليها عصر هذا اليوم!.

ويذكر لي أحدهم أن قريباً عزيزاً لأحد أصدقائه توفي، وكان ذلك الصديق بعيداً عن بلده ولم يعلم بخبر الوفاة، وكان ذلك قبل خدمات الاتصال الحالية التي تنقل الخبر بأسرع وقت، يقول: فذهبت أنا وصديق لي لأجل إخبار صديقنا عن وفاة قريبه، وقلت

لصاحبي الذي يرافقني : لا بد من التدرج في إخباره ، فلما وصلنا إلى صديقنا قال له صاحبي ودون مقدمات : لقد توفي قريبك فلان!

فما كان من صديقنا إلا أن تكدر ، وأصيب بصدمة عنيفة جداً؛ فلما خرجنا قلت لصاحبي : ما الذي دفعك إلى أن تقدم له الخبر بهذه الطريقة؟ فقال : أخشى أن يصدمه أحد بهذا الخبر!

فقلت له : لقد صدمته أنت ، وأزعجته بطريقتك الخاطئة؛ فما الفرق بين صدمتك ، وصدمة غيرك؛ بل ربما تكون صدمة غيرك أخف؛ لأنها قد تكون غير مقصودة بخلاف ما قمت به أنت.

وكذلك الحال بالنسبة لتلقي الأخبار المزعجة وذلك كتلقي خبر وفاة قريب ، أو خسارة مال ، أو عزل عن وظيفة ، أو اكتشاف مرض خطير عند الإنسان أو عند أحد والديه ، أو أولاده ، أو إخوانه.

فترى بعض الناس يتلقى ذلك الخبر بانزعاج شديد ، وربما سقط مغشياً عليه ، وربما دخل في أزمة مَرَضِيَّة ، فتكون المصيبةُ مصيبتين.

واللائق في مثل هذه الأحوال أن نلزم السكينة والوقار ، وأن نحسن نقل الأخبار المزعجة ، ونحسن تلقيها بهدوء وصبر ، واحتساب ، وحمد ، واسترجاع.

ومن أعظم ما يعيننا على ذلك توطين النفوس على وقوع المكروه.

**ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب**

وربنا ـ جل وعلا ـ أرشد إلى هذا المعنى، ووطن نفوسنا على تلقي المصائب والمكاره، وذلك كما في قوله ـ جل وعز ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ البقرة.

ولهذا كان السادات من الناس يستقبلون الحوادث المزعجة بالرزانة، والصبر، والاحتساب.

ومما يذكر في هذا الصدد ما كان من شأن قيس بن عاصم المنقري التميمي، فلقد كان ذا نفس مطمئنة لا تزعزها الأعاصير؛ فلقد وطنها على كل وارد يرد.

«قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك!

قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري، بينا هو قاعد

بفائه، محتب[1] بكسائه أتته جماعة فيهم مقتول، ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك!

فوالله ما حل حُبْوَتَهُ حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس، فقال له: قم فأطلق عن ابن عمك، ووارِ أخاك، واحمل إلى أمه مائةً من الإبل؛ فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

**إني امرءٌ لا شائن حسبي ... دنسٌ يغيره ولا أفنُ**

**مِنْ مِنْقَرٍ في بيت مكرمةٍ ... والغُصْن ينبت حوله الغصن**

**خطباءُ حين يقول قائلهم ... بيضُ الوجوه أَعِفَّةٌ لُسْنُ**

**لا يَفْطَنون لعيبِ جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن**

ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عددك، لا يبعد الله غيرك».

٢ـ **السكينة في تلقي الأخبار المفرحة**: فبعض الناس إذا بلغه خبر مفرح من نحو فوز، أو تعيين في وظيفة، أو ربح في تجارة، أو مجيء

---

١ ـ محتب: من الاحتباء، وهو أن يضم الإنسانُ رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشد عليها.

وقد يكون الاحتباء بالعمامة أو اليدين عوض الثوب، ويقال: احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقيه بثوبه، أو يديه، أو عمامته.

مولود، أو نحو ذلك ـ أخذته دهشةُ الفرح، فأصابه خِفةٌ، وطيشٌ، ومبالغةٌ في إظهار الفرح.

بل ربما أصيب في عقله، ومما يذكر في هذا الصدد، أن رجلاً كان فقيراً مُعْدَماً، فمات قريب له في دولة أخرى، وكان ذلك القريب ذا مال كثير، ولم يكن له وارث سوى ذلك القريب الفقير؛ فلما اتُّصِل بذلك الفقير، وأُخْبِرَ أنه هو الوريث، وأن مال مورثه الكثير قد آل إليه أصابته دهشة شديدة، ودخل في حال فرح عارمة، وصار يردد قائلاً: كل هذا لي، كل هذا لي، ففقد عقله، وصار يردد هذه الكلمة.

٣ـ **السكينة في تلقي الإساءات والرمي بالعظائم**: فدأب الأفاضل في القديم والحديث أن يُلقوا بالإساءة ويرموا بالعظائم؛

**.................................. وما زالت الأشراف تهجى وتمدح**

**و: لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدمُ**

فمن السكينة في مثل تلك الأحوال أن يَسْتقبل الفاضلُ تلك الإساءاتِ بالهدوء، والصبر، والطمأنينة، والثقة بالله، واستحضار أن الدوائر تدور على الباغي، وأن العاقبة لمن يصبر ويتقي.

ولنا في صفوة خلق الله أسوة حسنة، حيث رموا بالضلال والسفه، والبهتان العظيم، فما كان منهم إلا أن استقبلوا ذلك بالسكينة، والصبر، ولزوم التقوى، وانتظار الفرج من الله؛ فكان العاقبة لهم رشداً وفلاحاً.

فماذا قال الملأ من قوم نوحٍ لنوح ـ عليه السلام ـ لما دعاهم إلى الهدى بأحسن الطرق، وشتى الوسائل؟

لقد قالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هود: ٦٠.

وماذا كان جوابه؟ هل رد الإساءة بمثلها أو أشد؟ لا، بل لقد أجابهم بسكينة الواثق المطمئن لا المضطرب المتزعزع، فقال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هود: ٦١.

هذه هي حقيقتي رسول من ربه، مأمور بإبلاغ ما أرسل به.

وماذا قال الملأ من عاد لرسولهم هود ـ عليه السلام ـ لما أمرهم بإخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ لقد قالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ هود: ٦٦.

لقد رموه بأقبح الأوصاف؛ حيث السفه، والكذب، وهم يعلمون أنه خلاف ذلك.

فماذا أجابهم، لقد أجابهم بمثل جواب أخيه نوح ـ عليهما السلام ـ فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هود:٦٧.

وهذا نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ ماذا قال لما رمته امرأة العزيز بالبهتان، وأغرت به أن يسجن أو يعذب العذاب الأليم؟

لقد أجاب إجابة البريء فقال بكل وضوح وسكينة: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

فحقيق على كل من رمي، أو انتقص أو نُقِدَ نقداً جارحاً ظالماً أن يستحضر هذه المعاني، وأن يدرك أن لزوم السكينة في مثل هذه الأحوال هو الذي يأتي بالثمار اليانعة، ويفضي إلى العواقب الحميدة.

أما الطيش، والنزق، ومقابلة الإساءة بمثلها أو أشد فإنه لا يجدي نفعاً، ولا يطفئ لوعة.

ولقد أحسن الحكيم العربي إذ قال:

**ضربتني بكفها ابنةُ مَعْنٍ     اوجعت كفَّها وما اوجعتني**

٤ـ **السكينة في تلقي المديح**: فكما أن الإنسان قد يلاقي ـ أحياناً ـ كنوداً وجحوداً لفضله ـ فكذلك قد يلاقي من يسرف في مدحه والثناء عليه.

والسكينة في مثل هذه الأحوال أن يعرف قدر نفسه، وينزلها منزلتها اللائقة بها؛ فلا يَغْرُرْه ما قيل فيه من مديح، ولا يجعله يغفل عن عيوب نفسه.

٥ـ **السكينة حال ظهور البراءة**: فقد يرمى الإنسان بسوء، وقد يتهم، وقد يسجن بسبب ذلك.

فإذا ظهرت براءته فذلك موضعُ دهشةٍ، وفرحٍ عارم، وهذه هي حال أكثر الناس في مثل هذا المقام.

والذي تقتضيه السكينة أن يستقبل الإنسان تلك الأحوال بهدوء، وطمأنينة، واعتدال.

وهذا ما كان من حال نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ لما ظهرت براءته، وجاءه رسول الملك ليخرجه من السجن؛ فلم يطش، ولم يأشر، ولم يبطر.

وإنما قال بكل سكينة للرسول: ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ يوسف: ٥٠.

وهكذا كانت حال أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما نزلت براءتها من عند الله من فوق سبع سموات؛ حيث قابلت تلك البشرى بكل سكينة ورزانة، وشكر لله ـ عز وجل ـ.

يقول ابن القيم ﷺ في ذلك: «من تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها، فقال لها أبواها: «قومي إلى رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ـعز وجلـ.

من تأمل ذلك علم معرفةَ وقوةَ إيمانها، وتَوْلِيَتَها النعمةَ لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالَها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له.

ولثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، والله ما كان أحبها إليه حين قالت: «لا أحمد إلا الله؛ فإنه هو الذي أنزل براءتي».

ولله ذلك الثبات والرزانة منها، وهو أحبُّ شيء إليها، ولا صبر لها عنه، وقد تَنَكَّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفت الرضا منه

والإقبال، فلم تبادر إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه، مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة».

٦ـ **السكينة في العطاء**: فبعض الناس إذا أراد أن يعطي أيَّ نوعٍ من العطاء ـ عَظَّم ما يقدمه، واستكثره، وأدلَّ به ولو كان قليلاً.

والسكينة التي يتمثلها الكرام في مثل هذه الأحوال هي لزوم التواضع في العطاء، وتصغيرُ معروفهم، والبعدُ عن تفخيمه.

ولقد أشار أبو نوفل إلى هذا المعنى العظيم بقوله في أحد ممدوحه ممن يعطون ولا يستكثرون العطاء:

**ما زال يعطي ساكتاً أو ناطقاً حتى ظننت أبا عقيل يمزح**

٧ـ **السكينة في تلقي خلاف أهل العلم**: وذلك في كثير من المسائل التي يُختلف فيها، وتتفاوت حيالها أنظار أهل العلم، سواء كان ذلك في النوازل أو غيرها، فمن السكينة في ذلك أن يُتلقى ذلك بالهدوء، وسعة الأفق، والبعد عن التشنج والتعصب، وبالتماس العذر للمخطئ، ومحاولة التصحيح لمن بدر منه زلل بالحكمة والروية خصوصاً لمن كان لديه العلم، والبصيرة.

وبذلك يكون الخلاف سعة، وارتقاءًا بالعقول، والعلوم، وحفاظاً على أقدار أهل الفضل.

بخلاف ما إذا استقبل الخلاف بالتعصب للأقوال أو الرجال، أو محاولة الانتصار لطرف على طرف دون تدبر، أو ترو؛ فإن ذلك ينتج الفوضى، والتنازع.

ولقد أرشدنا الله -عز وجل- إلى هذا المعنى العظيم، كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ النساء: ٨٣.

**قال الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:**

«هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم - أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي، والعلم، والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإذا رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرزاً من أعدائهم - فعلوا ذلك، وإن رأوا ما ليس فيه مصلحة، أو فيه

مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه.

ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ».

٨ـ **السكينة في الولاية والعزل:** فكثير من الناس تطيش به الولاية في زهو، ثم ينزل به العزل في حسرة.

والسكينة في ذلك لزوم الاعتدال في كلا الحالين.

وبالجملة فهذه لُمَعٌ من فقه السكينة، والمقام لا يحتمل الإطالة، وإنما يشير إلى أن الحاجة إلى السكينة ماسة؛ فلا يستغني عنها المعلم في قاعة درسه، ولا القاضي في مقطع أحكامه، ولا رب الأسرة في منزله، ولا العالم في تصديه للناس، ولا الرئيس الأعلى في سياسته لرعيته.

وهكذا يتبين شيء من معنى السكينة، وشدة الحاجة إلى فقهها.

ولا ريب أن ذلك يحتاج إلى صبر، ومراوضة، ودقة ملاحظة؛ حتى تكون ملكة في الإنسان يتمثلها في شتى الأحوال وسائر التقلبات.

## الفهرس